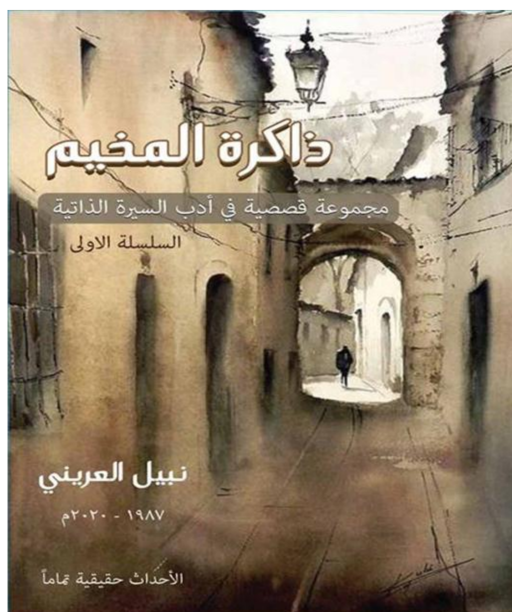

ذاكرة المخيم
مجموعة قصصية في أدب السيرة الذاتية
السلسلة الاولى
نبيل العريني
١٩٨٧ - ٢٠٢٠م
الأحداث حقيقية تماماً

ذاكرة المخيم

مجموعة قصصية

في أدب

السيرة الذاتية السلسلة

الاولى

نـبـيل العـريني

1978م – 2020م

ذاكرة المخيم مجموعة قصصية: في أدب السيرة الذاتية

السلسلة الأولى 1978م – 2020م

المؤلف: نبيل العريني

التدقيق اللغوي: آمنة السعود – محمد الهباش

الغلاف: شركة خدمات الدرش

الطبعةُ الأولى 2020

المقـــدمة:

ذاكرةُ المخيمِ مجموعةٌ قصصيةٌ: في أدبِ السيرةِ الذاتية، السلسلةُ الأولى تبدأُ ذكرياتُها منذ عام 1987م إلى أن تكتب في عام 2020م هي مجموعةٌ قصصيةٌ تحاكي واقعَ قصصِ وذكرياتِ الطفولةِ في مخيماتِ اللاجئين الفلسطينيين في غزة، وهي عبارة عن أحداثٍ حقيقيةٍ تمامًا، ليس فيها أيُّ خيالٍ أو تلفيقٍ وتزويرٍ للحقائق، حدثت في طفولةِ الكاتب وشبابه.

المؤلف

المحتويات

أدب الجدران

كنت نائمًا أحلم بارتداء قميص أسود كتب عليه باللون الأبيض "الانتفاضة مستمرة".

عندما استشهد عمال فلسطينيون من قطاع غزة في حادثة اعتداء من مستوطن صهيوني في فلسطين المحتلة يوم الأحد في العشرين من مايو لسنة 1990م، سُميت مجزرة عيون قارة، بينما عَبّرنا نحن عن غضبنا، فأسميناه: الأحد الأسود.

كان جارنا الشهيد جمال عبد الرازق يرتدي الكوفية في أناقة ثورية تعبق برائحة (الكوشوك).

عندما كان يتمترس خلف البراميل الإسمنتية التي وضعها الاحتلال الإسرائيلي على قارعة كل طريق في مخيم الشابورة في مدينة رفح (جنوب قطاع غزة)، كان حينذاك ثمن القميص ورقة صفراء كعبَّاد الشمس

قيمتها عشرة شواكل وخمس ورقات خضر (هن الخمسة شواكل).

وكان ذلك المبلغ عبارة عن أجر يومي لعامل بناء مفتول العضلات في رفح، لم تكن هناك فرصة لارتداء هذا القميص إلا في الحلم، يومها كنت قد وضعت يدي اليمنى في كُمّ القميص وَهَمَمْتُ لإسقاط قبة القميص على رأسي؛ لأدخلها في عبق الذاكرة...،

حتى بدأ باب بيتنا القرميدي يهتز من ركلات الجنود وهم يصيحون بالعربية الركيكة "افتخ الباب، اطفي الضو".

كان ثمة وهم هناك يأتي مع صرخاتهم يشبه حكاية الغول، مع ضجيج شاحنة الجند التي كانت تسمى "البَوَر".

و هذا النوع من الهجمات على بيتنا لم يكن أحدٌ لديه قدرة التصدي له باستثناء جدتي **خضرة** "أم عمر" رحمها الله، كانت توبخهم، تنهال

عليهم بالشتائم السوقية، منها العربية و العبرانية.

بعد أن هرب النوم و الحلم من شقوق الجدران العتيقة التي شُيدّت آناء الهجرة بأصابع جدي، وما بين طلاء البيت المتراكم فوق بعضه بألوانه الحزينة المخبئة في كهولة الجدار.

وقفت على قدمين ليستا لي!!!..

بأصابع نائمة لجسد لا يرتدي شيئًا سوى الحلم الذي من المتوقع أن تكون قد عرفت به إسرائيل وتحاكمني على إثره.

تلك اللحظات كان لديها طقسٌ تكتيكيٌ لجسدي، الذي يبدأ بأخذ كرسي القش ووضعه تحت النافذة المطلة على شارع "أبو الصابر"، والوقوف عليه باهتزاز يشبه الرقصة الجبرية.

من تلك النافذة كنت أستطيع أن أرى الزاوية الشمالية الأخيرة في الشارع عند حديقة جدتي جارتنا "أم

زياد حرب" رحمها الله، ومع اهتزاز كرسي القشّ نحو الشمال يتسنى لي رؤية دكان جارنا الأخر "أبو عمر" الخياط ..لأرى صَفًّا من الجنود الخائفين من ظلمة المخيم!!!، وهم يقفون تحت عريش جارنا "أبو علي الزاملي".

كنت قبل جمعة مضت .. قد رجمت عمود النور الذي كان على طرف بيت النشّار بسلاحي الشخصي "الشُدّيدة" وهذه عادة تخريبية نمارسها؛ كي لا يصطف الجنود ليلًا تحت جدران بيوتنا مطمئنين بضوء عمود الكهرباء.

كان لا بدَّ من لمحة ثانية عند الجنوب قبل أن أسقط نحو باب عائلة "الحلبي" التي كان والدهم يدير محرّك السيارة كُلّ صباح في أيام منع التجول الطويلة؛ حتى لا يصدأ محركها، لألمح عربة جند كان يقال لها: "الصرصور" من صغر حجمها.

فتحت جدتي خضرة الباب، وانكبَّ الجنود في بيتنا مندفعين، وأخذ واحدٌ منهم يحمل الإريل "الجهاز اللاسلكي" في محاولة لثنيه، ما أَخَّر دخول نصفهم، وبهذا تسنّى لي إبعاد كرسي القش عن النافذة وكأن شيئًا لم يكن.

بعد جلبة السقطة، وجدت أن وجه أمي الواقفة أمامي ليس وجه أمي الذي أعرفه، هذا وجهٌ مملوءٌ بالخوف مملوءٌ بالذعر، قالت لي: **اختبئ بالفراش**.

وأنا أقول في ذهني ببديهة لاجئ للمرة الألف:

أي خطة هذه..؟؟!!

أهي عملية سلام مؤقتة..؟؟

منذ طفولتي وأنا غير مقتنع بأي عملية سلامٍ مع إسرائيل، وأعرف أن الفراش لن يقيني السجن، وأعرف أن الفراش لن يقيني القتل، وأعرف أن الفراش لن يحميني من إسرائيل.

قال الجندي لجدتي وهو يحدّق في عيني، كأنه يعرف أنني سأقاتله ذات يومٍ عن كثب:

-"خجه اطلعي أنتِ والأولاد امسخوا الخيتان".

قالت له جدتي:

-لا أحد هنا يصلح لهذه المهمة؛ فهؤلاء أطفال مات أبوهم، وأنا امرأة عجوز، وليس لدينا شيء نمسح فيه.

قال:

-"مليش دعوة امسخوها بالطين بالصنه انتوا ليش يخلي مخربين يكتب على جداركم".

في تلك اللحظات تلاشى البرد من أوصالنا، واستوطننا الخجل والعتب معًا ..

كيف يمكننا أن نشطب الثورة عن جدار بيتنا المكرم عن غيره بشرفية المثول في قلب المخيم؟؟!!.

كان الملثم عند العصر قد بذل **جهد رسامٍ** وعقل شاعر، وهيئة مقاتل وهو يتفنن في رسم:

"غدًا إضرابٌ شامل" م ت ف.

لم أكن أتوقع أن وقع هذه الكلمات يزعج إسرائيل إلى الدرجة التي يحشد لها ليلًا جيشًا مُدجّجًا بالسلاح الممزوج بالجبن والخوف، من طفل نصفه نائم، ونصفه الآخر مُضطرب.

على قلة حيلة مِنّا خرجت وإخوتي بتحريض يشبه الدفع الحنون من جدتنا وهي تقول:

الله ما يطولّها من شدة.

أخذنا ماءً من قناة للصرف الصحي كانت تستقبل الضيوف أمام بيتنا على طول العمر وعرض المخيم، ومزجناه برمل خالط سواد الليل بطبيعته السمراء، لنشطب الإضراب عن جدارنا، بينما قطعنا الوعد لأنفسنا بأن: ننقل ما خَطَّ الملثم

بيديه شفويًا لأهل المخيم، ولن نذهب إلى المدرسة، ولن نسمح للسيارات بالمرور، سنمنع الدكاكين من فتح أبوابها، وسنقذف بحجارة أرضنا في وجوه الجنود عند الصباح وهم نعاس.

إن الآلام التي عايشناها في الانتفاضة الأولى كانت قاسية، وتذكّرها أشد منها قسوة، أما كتابتها فهي بمثابة الوخز بسكين في أحشاء الذاكرة.

◉ العشرين من مايو 1990م

جَمَل المحامل

كانت أمي قد نسجت لي قميصًا أخضر من الصوف بأصابعها اللواتي يُسَلّمن على الأشياء كأنهن مغزل، قميصٌ يلائم تلك الريح التي تتسلل من بين (ألواح القرميد) التي تدخل نور الله إلى كل بيتٍ في المخيم.

الطفولة هي إلمام المعرفة في تضاريس الأسقف، عدُّ (ثنايا القرميد) واحدة تلو الأخرى، قفزت قطة أثناء العدِّ والتلعثم عند الثنية الرابعة والعشرين، والعَدّ ثانيا من عند الزاوية التي عُلّقت فيها صورة الطفل ذي الدمعة "للفنان الإيطالي جيوفاني براغولين".

صحيح!! لماذا كانت بيوتنا في المخيم تتسابق لتعليق تلك الصورة..؟!

حقيقة أنا إلى هذا العمر لم أوجه هذا السؤال لأحد الأشخاص الذين

أعرف أنهم كانوا يعلقونها، بما فيهم أمي.

لكنني أتساءل...!!

هل كنا نُعلّق الحزن على جدران بيوتنا عمدًا..؟

هل كان علينا أن ننقل الحزن مع أثاث الذاكرة..؟

أنا لا أذكر أني شاهدتُ أحدًا قد عَلّق على جدار بيته صورة تدعو إلى الفرح أو السرور ...!

هل كنا عاكفين بسلوكنا العتيق على إبقاء الحزن في كل اتجاه تقع عليه أعيننا...؟

هل نتشابه مع دائرة شؤون اللاجئين الفلسطينيين في (منظمة التحرير) بتصورها أن إظهار أي نوع من أنواع الحياة المستقرة في المخيم يعتبر تسليم مقصود لقضية العودة والرجوع ..؟

وأنّ أيّ تطوير للبنية الفرحية والسرور السكاني هو بمثابة تفريط بالقضية الأهم..؟!

هل ورثنا طريقة الحزن تلك عن آبائنا وأجدادنا..؟

تتذكرون صورة الشيخ (ذو العقال الأبيض) الذي كان يحمل مدينة القدس كلها على منكبيه، ويثبتها بحبال معلقة في جبهة رأسه، والتي رسمها الفنان التشكيلي "سليمان منصور" في العام الثلاثة والسبعين وأسماها: "**جمل المحامل**".

إنها لا تعبر في مدرسة الفن الكلاسيكي إلا على أن هذا التجريد لا يمكن التفريط بهِ.

إلى هذا اليوم لا أستطيع استيعاب تلك الصورة، كانت طفولتي (توشوشني) أن تلك الصورة خيالية "فنتازيا" مثلًا، لم أكن لأعي أن ذلك الشيخ كان يمثلنا في الحقيقة.

وأن سليمان منصور كان ينوي سرد الحكاية لنا منذ زمن بعيد، وأن هذا الشيخ يمثلنا تمثيلًا ليس نسبيًا، ولا هو قوائم – على رأي إخوتنا الماهرين في "كلاسيكو" الانتخابات البلدية والتشريعية.

وإنما يمثلنا تمثيلًا محمولًا على **الإعتاق،** محمولًا على الأعناق، **أشعر أن سليمان منصور كان يود إخبارنا أنه على الفلسطيني حمل قضيته على أكتافه أينما يذهب،** حمل الشبهة العربية واللعنة المقدسة إلى أيّ عاصمة في هذا العالم.

الآن أستطيع فهم عمليات التفتيش المذلة للفلسطيني على معبر رفح من الجنود المصريين، وفي موانئ ومطارات العالم بتلك الفوضى والكركبات الأمنية.

بعد تفتيش يتعدى الخمس ساعات للفلسطيني على معبر رفح يكاد الجندي أن يقول لك: "**انفض**

أكتافك، عَلّك تحمل القدس تحت قميص الصوف الأخضر".

إنه ليس خبرًا عاجلًا أن أخبركم أن أمريكا دَمَّرت تلك اللوحة عام ستة وثمانين في ليبيا، عندما قُصفت أحد المتاحف الفنية هناك.

جمل المحامل يا سليمان منصور، وبعد تسعةٍ وستين عامًا ما يزال غارسًا قدميه في طين الدنيا، يحمل القدس على ناصيته، ويدخل فيها العواصم كلها دون أن تضبطها على أكتافه أجهزة الأمن والتفتيش العربية.

وما تزال لوحتك إلى الآن معلقة على جدران كل بيت في المخيم.

⦿ التاسع من تموز 1990م

لقاء السياج

- كيف حالكم؟ بالصوت العالي.

- الحمد لله، كيف أنتم؟

- الجميع بخير بصوت أكثر حدة.

"أمي بتسلم عليك، كول لأبو نعيم مكدرناش نبيع بيت أختك أم خالد، مفيش مشتري لهلحين، سامعنااا..".

إنها لم تكن مكالمة هاتفية ..

ولا هي حرقةُ شوقٍ مشتعلة في مطار، إنما لقاءٌ حميمي بين عائلة شُطرت إلى نصفين، نصف تاه في اللامكان واللازمان واللاولادة للأمنيات واللاأعياد أرض.

والنصف الآخر أضاع العمر في السفر، وأضاع الوقت في الوقت، وأضاع الكلام في الصمت!!!.

بعد نكسة عربية أذابت ما تبقى من الشرف.

عند العصر دائمًا ما تكون الشمس فوق مصر، وهذه أول معرفتي في

الاتجاهات الأربعة، أن ثَمَّةَ مصر جنوب قطاع غزة.

كان العصر يؤذن له باللهجة المصرية في مدينة رفح المصرية، ويؤذن له باللهجة الفلسطينية بصوتٍ قلاعي لمؤذن من عائلة "زعرب"، في مدينة رفح الفلسطينية.

شعاع الشمس كان يجعلنا أكثر وسامةً ونضارة من نصف العائلة في الجهة المصرية من السياج.

حينذاك رصصت أصابعي فوق جبيني لأحجب بعض الشمس عن بضع الوجه.

من هذه الطويلة سألت أمي ..؟

هذه عمتك أمُّ جهاد وزوجها وابنتاها.

كيف وصلوا إلى هناك..؟

هذه قصة طويلة أحدثك بها عندما نرجع، والآن اسكت أريد أن أسمع عمتك..!!.

على يسارنا أحد الشيوخ الكبار يحدث ابنته، يصيح عليها، كيف حالكم؟

تجيب عمتي: الحمد لله، أنتم كيف أخباركم ..؟.

كان هذا الأمر يثير جنوني ويزعجني جدًا، كأن عمتي سرقت سلام الرجل لابنته!!

أصيح أنا "بحكيش إلك الزلمة ي عمتي، يعمتي بحكيش إلك" ينهرني الشيخ، اسكت يا ولدي، أريد أن أسمع ما الذي تقوله ابنتي؟

أسكت أنا وأفتش في الأكياس عن المرمرية والزعتر. أخبرتكم أن ثمة عائلة انشطرت إلى نصفين، لكن الأمر يبدو أن هناك سوقًا من العائلات تم شطرها إلى أنصاف.

على يسار الشيخ الذي أوقفني عن الصياح منزلٌ يستطيع سرد الحكاية أفضل مني.

بدقة تجريدية، بدقة قسمية شطرية هدميه، لا أعرف نوع المصطلح الذي عَلَيّ كتابته لأصفَ لكم ذلك المشهد!!!.

منزل.. مطبخه في الجهة الفلسطينية من السياج وحَمَّامه وصالونه في الجهة المصرية من السياج.

بالفعل أحدثكم واقعة حقيقية تمامًا : بمعنى إذا أرادت ربة المنزل أن تستقبل ضيوفها فعليها أن تكون في جمهورية مصر العربية، وإذا أرادت صنع كوب من القهوة لهم، يحتاج الأمر السفر إلى فلسطين المحتلة!!.

للمنزل جدار يشبه الطلاسم التي عبث فيها كل ساحر من (سحرة التاريخ)، ترى في ثناياه هكسوسًا، تيهًا، عربًا يهودًا سلاجقة، حجارة جلس فيها الزفزف البحري بكل ثقة، كسرت هيبة التاريخ ببقائها.

تحتاج المرمرية والزعتر إلى مهارة انتفاضية، لا يتقنها في ذلك الزمن سوى أطفال الحجارة.

(لف وقية) المرمرية أو الزعتر في كيس بلاستيكي محكم، ومن ثم ربطه بحجر خشن ذات وزن مناسب، وبعدها (زقله) أو رميه ناحية الجهة المصرية، لنصف العائلة من السياج هناك "زعتر مرمرية، شاي بهارات، صابون كزبرة بزر" أشياء، كنت أتساءل كيف لا تتوفر في مصر المفتوحة على هذا العالم كله ..!؟

كنت أعاتب أمي، قائلًا: إن كمية المرمرية والزعتر كبيرة جداً.

لأمي تكتيك مخزوني... تكتيك دائم لمقاومة الفقد، الفقد الذي يحتاط له الفلسطيني في كل مرة من مرات القلع.

قالت: "كل مرة خواتك بوقعوا الزعتر بالنص وبصلش لعمتك، المرة هذي جبتلكم بكيت يعلق بالسلك،

وبكيت يقع بالنص، وبكيت يصل لعمتك "**تنو يشبع السلك بكيتات زعتر**".

هناك أصبحت الأسلاك شجيرات لها ثمار من أكياس الزعتر والمرمرية تأكلها العصافير.

كثيرًا ما نشعر أننا نسمع في غير موعد صوت الأذان يقرّ في الأذن كأنه العصر أو الظهر، هذه المرة يختلف الأمر على مسامعي، وكأني أسمع مناديًا ينادي أن:

"حَيّ على الذكريات"

في **لقاء السياج** أشياء مرتفعة جدًا شاهقة!!!

أعلى من سياج الأسئلة، أعلى من سياج الوقت.

عيناي الآن ذاكرتي، شفاهي الآن ذاكرتي، هذه المسافة بين السياج والسياج ذاكرتي، بين السياج وما بين الوقت ذاكرتي، بين السياج وهوس مجاز اللقاء ذاكرتي.

عماء الذاكرة، نعم يأتي على الذاكرة حين تكون فيه عاجزة عن بصيرة الصور، حينها فقط تحتاج لأن تتحسس الأشياء بجوارحك لتتعرف عليها، وتدرك صلتك القطعية بها، تشمّها، تسمع طنينها الخافت، تتذوقها بلسانك، نعم الذكريات تلعق باللسان.

إننا لم نكبر في الفراغ ..

قد لمحت في السياج ما لا يلمح

شرحت لكم ما لا يشرح.

حين كنت أهرب تحت السرير من حَمِّ الصيف؛ لأنام، لم أكن أنام ولا أذكر أن أحدًا استطاع النوم تحت الأسرّة.

وحين كنت أشمّر سروالي حتى لا يتبلل في شتاء المخيم وأنا أركد بين الأزقة لم يكن هناك ثمة شتاء.

إنها الذاكرة ورذاذ سحرها وكذبها الحقيقي المفعم بالشغف.

◉ السابع من ستمبر1989م

رفح

يا يما في دقه ع بابنا

ما اسمه..؟

فراس..

هناك صوت طائرة..!!

نعم طائرة هيلوكوبتر.

في أيّ ساعة..؟

الساعة الآن السادسة صباحًا..

لا أقصد في أيِّ ساعة ولد فراس..؟

ولد عند الساعة الثالثة صباحًا، منذ ثلاث ساعات فقط.

من اقترح الاسم..؟

ستك طبعًا.

صوت الطائرة يقترب كأنها فوق مقبرة السويد.

هذا أمر "مستاهل "؛ من النادر جدًا أن تُحلّق طائرة فوق مدينة دير البلح " والله يمه من سنة السبعة وستين وين لوين لمه نسمع طيارة "

لا شك أن هذه زيارة لخنزير كبير أو قد تكون مطاردة..!!

أطلقت النار... أطلقت...

"الله يستر بيت عمك يبنون السطح وعندهم عُمّال"

قالت أمي.

مبروك سمعت أنكِ قد انتهيتِ من تطريز الثوب الفلاحي.

"الحمد لله، كاد أن يفقدني بصري".

قالت مجدولين .. (الطالبة في الجامعة الإسلامية والتي تدرس بكالوريوس جغرافية فلسطين)، والتي كانت هي أطلس العائلة، وأكثر أفرادها حزنًا وحسرة وتضحية، خُطبت لابن عمها عرفات في العاشر من مايو سنة ثمانية وثمانين، وسُجن هو بعد الخطبة بخمسة أشهر في السادس من أكتوبر من نفس العام، ليقضي بعدها ثمانية أعوام في السجن.

لم نكن نتوقع أن مجدولين سوف تقرر انتظاره عندما كان الحديث يدور عن حكمه بالمؤبد الذي تقرّه محكمة الاحتلال الإسرائيلي على أنه مدة زمنية تصل لربع القرن، قضى ثماني سنوات منها، وخرج باتفاقية سياسية سميت (اتفاقية طابا)، بين منظمة التحرير ودولة الاحتلال في الرابع من حزيران عام أربعة وتسعين.

ما تلك الجَلَبَة..؟ ليس من عادة جيراننا رفع صوتهم.

لا أعرف انظر الإسبست يهتز كأنه زلزال، الطائرة فوق بيتنا بالضبط، أمسك بصورة أبيك قد تسقط عن الحائط.

إنكِ تنسين!!

لطالما حدثتنا جدتنا أن أبانا مات من غير أن يسقط، أشعر أننا نحن الفلسطينيين كلنا نموت من غير أن نسقط ..

أليس الموت سقوطًا يا نبيل..؟

لا أبدًا، السقوط هو التفريط بالممكن، أما الموت فهو الإرادة الإلهية التي لا ينفع معها أي نوع من المقاومة.

أم أحمد تصيح عليك يا أمي.

" روحي شوفي شو بدها يمه، الله يستر من هـ اليوم "

قالت أمي ..

تقول إن عندهم فدائيًا هاربًا والطائرة تلاحقه، وأننا فدائيون مثله وعلينا أخذه

" وين نؤخذه الله يأخذهم اليهود "أضافت أمي..

بضع ثوانٍ كانت كفيلة لتحويل أمي إلى ملثم بشالها الأبيض وفوقه شالٌ أسودٌ آخر كان يقال له: "القونعة" مع لباس آخر سفلي كان يقال له "الداير".

قالت له أمي:

"تخافش يمه أنت بأيدٍ أمينة، احنا بنخبيك وبنضبك وبـ نفديك بدمنا".

قال لها: أنا لا أريد شيئًا سوى أن أذهب إلى المخيم. عند بيت فلان تعرفينهم؟!

قالت له: "عِزْ المعرفة، أخته بنت صفي "أي أنها درست معها في المدرسة، ثم أردفت أن عليه أن يبدّل ثيابه؛ لأن الطائرة عرفته منها.

أصابته حيرة الثياب، على المقاتل أن تكون لديه مهارة استبدال الثياب لينجو من عين العدو.

قالت: "والله يما ايش متلبس ما بنفع، لانهم راح يشكو باي حركة للزلام أنا بقول تلبس هـ الثوب وهيك بتفكرك الطيارة صبية وبتلحقناش".

مفهوم المعركة الآن يتبدل عند بَسّام؛ لقد أصبح مطاردًا من الاحتلال الإسرائيلي؛ لأن موقفه رجولي، – ولأنا مش نسوان – هذه المقولة التي تتردد بكثرة على ألسنة الشبان في غزة.

لكن أمي تقلب تلك المقولة بشكلٍ عكسي تمامًا، كان القرار صعبًا جدًا عليه، الموت دون الثوب، الأسر دون الثوب، أو النجاة بالثوب، ماذا لو كنت أنا مكانه ..؟

سوف أختار....!!!

حقيقة لا أعرف، لكنني ذات يوم انتحلت شخصية شاب مجنون وأنا أرصد هدفًا عسكريًا على أطراف مستوطنة "كفار داروم" مرتديًا ثوبًا صيفيًا يسمى "جلبية"، وجعلت من نفسي أَحْوَل وبـ "ريالة"، وأنا أقود عربة مع حمارها، وأذكر في مرة أني وقعت في حفرة للصرف الصحي بجانب (وادي السلقا) وأنا أزحف على بطني في أحد الاجتياحات لأطراف مدينة دير البلح، ولم أكترث لا بالرائحة ولا بالجراثيم، لقد ارتدينا أثوابًا يا بَسّام كان علينا أن نرتديها لخاطر فلسطين.

قالت له: "سوف نسلك تلك الطريق المختصرة إلى المخيم والمظللة بأشجار النخيل من بستان(الحجة آمنة أبو عيسى)، وفي دقائق نكون عند الشارع العام المؤدي إلى المخيم".

تناول هذا الطفل اسمه فراس وعمره ست ساعات فقط، أوقف تلك السيارة.

أي واحدة..؟

المرسيدس الصفراء.

تعرفين السائق..؟

نعم هذا خميس أبو زعيتر راجل طيب.

أين تذهبون ..؟ سأل خميس أبو زعيتر.

إلى المخيم يا أبا محمد .. ردت أمي.

سأل خميس: أنت مطارد أليس كذلك ..؟

نعم مطارد .. أجاب بَسّام.

المخيم ليس آمنًا دعني أوصلك لمكان آخر.

أنت أوصلني للمخيم ويخلف عليك .. قال بَسّام.

شكرًا لكم.

"دير بالك على حالك يمه" قالت له أمي.

"وتأمنش لحد" أضاف السائق خميس

"ماتخافيش يمه"، رد بَسّام وهو يلهث.

بعد ساعة واحدة رجع بَسّام إلى بيتنا، لكنه لم يكن وحده، كان معه غَفَرًا من الشرطة الإسرائيلية وضباط المخابرات التابعين للجيش.

ابتسمت مجدولين وقالت لأمي:

"حَضّري حالك "هيحبسوكي يمه"، أمسكوا الشاب، وأمسكوا الثوب " قبل أربعة أعوام اعتقلت إسرائيل خطيبي واليوم تعتقل ثوبي، أيعقل أن تأخذ إسرائيل مني عزيزين..؟

سيعترف!

لا لن يفعل ..

سيقول لهم من أوصله!.

لا لن يفعل.

سيفعل.

أصبح المتوقع من بَسّام كأنه شيء يسمى باللهجة الفلسطينية "حُزيرة" معناها أحجية.

أنه سوف يعترف على أمي أو لا يعترف.

الجميع كان يتوقع اعترافه وسجن أمي، لأن عقولهم المعرفية بالجيش تقول: ما دام أنه أتى بهم إلى البيت فهو قد اعترف على جميع التفاصيل.

لكن حدس أمي نحو بَسّام كان مختلفًا تمامًا، قالت وكأنها أطلقت قذيفة من فمها: "**بَسّام شب ما ببدل عرضه بدمه**".

لا أعرف كيف تنسج الروابط الدموية الفلسطينية في موقف واحد في ساعة واحدة في استعارة ثوب!!

كأن بَسّام وأمي اتفقا اتفاق أم وابنها.

رحل بَسّام مع الجيش إلى السجن وأصيبت المرأة بحالة من الفقد..!!

كان لها ابنٌ في السجن منذ عام من دمها ولحمها ورحمها، وكانت لا تقول فيه إلا قولة واحدة:

"السجن للرجال"

شعورها تجاه بَسّام أثار غيرتنا، وظلت في تلك الحسرة إلى أن زارته في سجن النقب بعد عام كامل.

إن المرأة الفلسطينية عبثت في مخططات الاحتلال الإسرائيلي، وأفسدت الكثير من نواياه الخبيثة، وقاومت الاحتلال بتطريز ثوب ودعاء وزيارات شاقة للسجون في الصحاري.

◉ السابع من حزيران 1991م

تكتيك الغياب

هذا الصوت ليس صوت الصبح الذي أعرفه، هذا صبح "مطخوخ" بخاصرته، صبحٌ يئنُّ من الوجع، كل الصباحات التي طلعت على المخيم كانت قد أُرديت عند الفجر برصاصة في صوت العصافير، بركلات الجنود على الأبواب المغلقة بالخجل، والمخبئة خلف الستائر المتسخة من أنامل العمال، بنعيق مكبرات الصوت في أذن الحسرة.

كنتُ قد جئت لمخيم دير البلح قادمًا من مخيم الشابورة في رفح، ولأن أمي خافت عَليّ من المواجهات الضروسة مع الجيش في الشابورة هناك.

قالت: إنَّ دير البلح أقل حِدَّه..

لكنني كنت عفريتًا يحمل في قبضتهُ حجرًا، فلسطينيٌ من النوع المخمل .. جدائل من كوفيةً، وعينان كأنهما قنبلتان، وأقدامٌ حافية..

كلما قال الجندي المنادي: إنَّ على من أعمارهم فوق الستة عشر عامًا الخروج إلى المدارس، أَهمّ لأخرج كأنني العمر الذي ينعق عليه بالمكبرات.

فتقول لي جدتي: اجلس يا "ستي" أنت ما تزال طفلًا!!

لا أعرف كيف كنت أشعر أنها تكذب، جميلة جدتي حينما تكذب ..

كانت عيناها تعترفان بالكذبة، تعترفان بالتزوير في الأعمار والقدرات؛ لأنها ببساطة طيلة النهار تقول لي:

إنَّ ما تفعله لا يفعله الكبار، وإنْ ضبطك اليهود سوف يطلقون عليك النار مباشرة.

لماذا إذًا ليس أنا ضمن من تنعق عليهم مكبرات الصوت؟!! هذا أمرٌ مجحف جدًا؛ و فيه طبقية وانتقائية.

هل سيخرج الشباب والرجال والشيّاب ..؟

كيف سيخرجون مرة واحدة من بيوتهم ..؟

أم سوف يخرجون على دفعات ..؟

فرادى ..؟

ماذا لو خرج الجميع دفعة واحدة ..؟

وبدلًا من ذهابهم إلى المدارس منكسي الرؤوس انقضّوا على الجنود كأنهم رجل واحد ..؟

كم مرة سوف نخرج من بيوتنا ..؟

كم عمرًا يحظى بهِ الفلسطيني ليستمر في الخروج عند كل زاوية من زوايا التاريخ ..؟

مع طأطأة الليل رأسه للصباح، وتسليم أوراقه السوداء للفجر، أخَّرَت جدتي أخوالي عن الخروج، وقالت لهم:

"الظلم يكون حموه في بدايته "

ألبستهم ثيابًا ثقيلة، باشرت عليهم كأنهم أطفال صغار يذهبون إلى

المدارس، كان لهذا النوع من الخروج ثيابٌ خاصة كالزيّ المدرسي تمامًا.

بنطال داخلي لا بدَّ منه؛ لأنهم سوف يجلسونكم على شاطئ البحر ككل مرة قالت لهم.

أعدت لهم عددًا من الكنزات لم أدرك عددها، كوفية على عنق كل واحدٍ منهم، جوارب فوق بعضها، أثقل ما عندهم من ثياب، أصبح كل واحدٍ من أخوالي يرتدي على جسده ثيابًا تكفي **لعشرة أخوال**.

أحدهم رفض انتعال حذاء له حبل، قال:

يصادرونه.

ثم همست في أذن كل واحدٍ منهم:

أنه إذا فهمت أنهم سوف يأخذونك للسجن اهمس لأقرب "ختيار" بجوارك ليعلمنا.

ثم أعطت كلَّ واحد منهم قبلة على جبينه.

هذا تكتيك الغياب إذًا ..!

تكتيك الرحلات الطويلة للسجون ..!

أبدت لهم شموخًا لم أعهده، حرضتهم على الصمود والصلاة وهم مكبلون.

قالت: صَلّوا على الدوام.

قال أحدهم: "كثير ما تكون وجوهنا على غير قبلة".

قالت: "لله المشرق والمغرب"...

خرجوا دون أن يلتفت واحدٌ منهم للوراء، كأنها رحلة مكررة.

جلست جدتي عند زاوية الزقاق، لم ألحظ عليها هيئة المودعين، ولا شكل المندهشين الخائفين.

كانت كأنها تطلق عصفورين من يديها.

لم أسمعها تقول شيئًا غير جملة واحدة "في رعاية الله".

ثم رجعت وهي تنظر إلى السماء وتتمتم بأسرار بينها وبين ربها.

عند الثامنة صباحًا، رجع واحدٌ منهم وأبقي على الآخر، لم تسأله عَمّا جرى ولا عَمّا حدث.

قالت جملة مدوية كصوت صاعقة رعد:

"**أين أخوك؟**

دبَّ في المخيم صمت رهيب كأنّ كلّ الأمهات تقول أين أخوك في لحظةً واحدة ...؟

قال: أخذوه..

أخذوه!!

هل هي كلمة كافية لشرح الغياب، الفراق، القلع، النزع، الاعتقال، السجن، الحبس ..؟

نعم كانت كافية، كانت كافية لترتيب أبجدية حياة جديدة عند جدتي، عليها الآن الاعتماد على ولدٍ واحدٍ في كل أمور حياتها.

قال: جَمَّعونا في المدرسة الابتدائية ثم أجلسونا على شاطئ البحر، بعدها صاحوا على بعض الأسماء.

كان من بينهم أخوك؟

نعم كان من بينهم.

أركبوهم في الحافلات، ثم تركونا معصوبي الأعين ومكبلي الأيدي، ولم نعرف أنهم ذهبوا إلا عندما جاءت الناس لتخبرنا بذهابهم.

◉ الثاني عشر من شباط 1989م

سجن النقب الصحراوي

تعال اجلس بجانبي...هل أنت من القدس...؟

نعم من القدس.

كم عمرك...؟ تبدو صغيرًا ..!...

عمري ستة عشر عامًا، حصلت على بطاقة الهوية منذ يومين فقط.

كيف اعتقلوك..؟ ماذا فعلت..؟

تبدو مرهقًا، وجهك مملوء بالندبات.

ضربوني على وجهي ولم أفعل شيئًا، كنت أمشي في سوق العطارين، قادوني إلى العربة جَرًّا وضربًا وهم يتهمونني بقذف الحجارة عليهم، ثلاثة عشر جنديًا إسرائيليًا قاموا بضربي، انهالوا عَليَّ بالعِصيّ الحديدية والسياط.

وأنت هل فعلًا رجمتهم بالحجارة ..؟

يا ليتني فعلت، هم لم يبقوا في القدس حجارة لنرجمها، حتى أصبح الشبان يرجمونهم بالأحذية!

هل جئت وحدك ..؟ أم معك أقارب، أحدًا تعرفه..؟

لا أعرف، أنت ترى الحالة التي أنا عليها، عيناي منتفخة من اللكمات، كدسونا في حافلة ممتلئة، كان هناك كثير من الشبان، سمعتهم يتحدثون بالعبرانية بأنهم سوف يقودوننا إلى سجن بئر السبع، هل نحن في بئر السبع ..؟

لا، نحن في سجن النقب الصحراوي.

لا عليك أنا صابر من غزة من مخيم الشابورة في مدينة رفح.

وأنت ما اسمك..؟

أنا يوسف من العيزرية.

اسمك جميل فالسجن يليق بيوسف، والسجن للرجال يا أخي، اسمع نحن حَوّلنا السجن إلى مدرسة،

وجعلناه على غير الحالة الفعلية التي يريدها له الإسرائيليون، إذا لم يكن الليلة ففي الصباح سوف ينقلونك إلى مكان آخر..

إلى التحقيق..؟

لا لا، قبل التحقيق هناك محطة مهمة بالنسبة لهم، كان من المفترض أن تنزل فيها أولًا، ولكن لأن عددكم كبير كما أسلفت، وزعوكم على الأقسام، وهذا لحسن حظنا معًا.

أي محطة هذه..؟

المحطة هي المرحلة الأولى في السجن، وهي غرفة كبيرة نسميها غرفة العصافير، هناك ثمة عملاء يعملون مع اليهود بوظيفة دائمة، يحاولون استجوابك بشكل مختلف، يوهمونك أنهم رجال من التنظيم والثورة، فيهم كبار وشيوخ وحفظة للقرآن، وبعد أن تكون قد تباهيت بأعمالك النضالية والثورية، وأمَّنتهم على أسرارك، تجدهم شهودًا عليك

عند القاضي في داخل المحكمة بقانون يسمى "تمير" tamer، وهذا يوفر عليهم عناء التحقيق، ويوفر عنهم الوقت.

الحمد لله أني التقيت بك ..!

حظك سيئ مع الطعام، غدًا سنبدأ إضرابًا عامًا عن الطعام في جميع السجون.

إضراب عن الطعام!! يعني لا تأكلون..؟

نعم فقط نشرب ماء وملح حتى لا تتعفن أمعائنا.

مع المدة الطويلة للإضراب...

(يا ميجنا وياااميجناااوياميجنااا).

ما هذا الصوت؟ هل يوجد غناء في السجن..؟..!!

هذا "**نايف أبو عياش**" مطرب شعبي من رفح، يُهوِّن علينا السجن بمواويله الحزينة والمشوقة، سأجعلك تلتقي به إن بقيت عندنا في القسم، فهو لديه الكثير من القصص الطريفة،

أتصدق أن لديه عصفور دويري يصاحبه ..؟!

يطعمه ويرقِّصه كل صباح.

أصدق، لكنني أجد صعوبة في تصديق حبس مطرب شعبي.

نحن في غزة يا يوسف كلنا نقاوم بطريقتنا الخاصة، المغني يقاوم بأغنيته التي تزعج إسرائيل، والمزارع يقاوم بتوزيع مزروعاته بالمجان على الناس أثناء منع التجول.

حدثني عن القدس عن أبوابها عن أهلها عن أسواقها وحجارتها، هل تستحق القدس كل هذا العناء والتضحية والعذابات التي نبذلها لأجلها ..؟

لا أعرف كيف يمكنني وصف الشعور فأنا لا أجيد إظهار الأمور على حقيقتها.

نصف عائلتنا يقيمون في الأردن في مخيم الوحدات، كثيرًا ما يزورنا كبار السنّ منهم، بعد سماح سلطات

الاحتلال لهم بالصلاة في المسجد الأقصى.

أسمَعَهَم يصفون شعورهم أن ثمة أشياء في القدس تشعرهم بالطمأنينة كتلك التي شعروا بها في مكة المكرمة.

في القدس يا أخي رائحة غريبة لا يمكن أن تنسبها لأحد غير الأرض والطين، في القدس تشعر أن الأنبياء جالسون على الطرقات، والملائكة تحوم في السماء.

كأن في القدس يا صابر بابًا يوصلك إلى الله.

أنا صغير لا أعرف أن أصف لك.

لكني أطمئنك أن القدس تستحق منا تضحيات كثيرة **ودماء**.

⦿ السابع عشر من نيسان 1992م

فت حمص

تذكر يا مراد عندما كنا نلعب "يهود وعرب" هناك عند تلك الكثبان...؟

أين هي الكثبان ..؟!

لقد سويت بالأرض وزرع مكانها عشرات البيوت!!

هذه التوسعة الغربية للمخيم، أذكر عندما طلب جيشُ الاحتلال من دار "عيد" هدمَ بيتهم وإعطاءَهم قطعة أرض ونقود ليبنوا بيتًا جديدًا في تل السلطان، حتى يصبح هناك مساحات واسعة في مخيم الشابورة، ويتسنى للجيش الإسرائيلي مطاردتنا بأريحية مطلقة.

ليست عائلة عيد وحسب بل تمَّ إجبار عائلات كثيرة على هذا النحو، كانت تخطط فيها إسرائيل لإفراغ المخيم من الناس، وتخفيف الاكتظاظ، وتوسيع الشوارع.

تذكر الجرافة الصفراء المعطوبة أول حَيّ السطرية مقابل "حسن الفوال" ..؟

أتذكر كل شيء، عندما كنا نلعب لعبتنا المفضلة "يهود وعرب" كنت أنت تُصرّ دائمًا على أن تكون في صف العرب.

وأنا كنت أحب حمل السلاح منذ طفولتي، ودائمًا أكون في صف اليهود، المفارقة رهيبة يا نبيل، كنت أنت في صف العرب، وأنت من تصنع لنا الأسلحة من الخشب، ثم تطليها باللون الأسود بحرق البرابيش السوداء عليها، وتضع لها زنادًا من الجلد مع مسمار تلفه حول الذراع، ثم تتركه ليصدر صوت طلقات عندما يرتطم بالمقبض، عندما كانت تنتهي اللعبة ويأتي الجيش ليقف عند مدرسة "أ" مقابل بيت "فلفل والقرناوي"، كنا أنا وأنت نتحول تلقائيًا إلى صف العرب.

أذكر أنك في يوم وضعت صفيحة حليب ذات حجم عائلي، داخل (المتاريس) مقابل حارة لسدود وملأتها بالرمل، ثم أخذت أسلاك النحاس التي كان يلمُّها صهيب ليبيعها، وقمت بتوصيلها إلى أن وصلت طرف زقاق منزل "مطر"، وجعلت صفيحة الحليب تبدو كأنها قنبلة كبيرة.

يااااه كان ذلك اليوم عظيمًا في طفولتنا؛ جاء الجيش بالكلاب البوليسية وخبراء المتفجرات، ونحن عند زاوية بيت تيم نقهقه ضحكًا.

فرض منع التجول يومها لستِّ ساعات.

نعم والجميع حمَّلنا الذنب وهم يبتسمون في وجوهنا.

كنت أعرف يا صديقي أنك ذات يوم سوف تتحول إلى فدائي، وكنت أشعر بالغيرة المستقبلية منك.

لكنني لم أكن لأمتلك الجرأة المجنونة التي تمتلكها أنت.

ها أنت أصبحت مجاهدًا يا مراد.

مجاهدًا!!!! فدائيًا!!!!

ماذا فعلت بنا هذه الدنيا يا صديقي..؟

تصنفنا حسب رؤيتها..!!

تعرف أول هَمٍّ ارتكبته لقلبي بيدي عندما اعتقلنا لأول مرة، بعدما انتهيت من ثمانية عشر يومًا من التحقيق سألني السجان:

إلى أيّ الأقسام أريد الذهاب ..؟

كانت خلفيتي بسيطة جدًا عما يدور في السجون، كنت أعرف من أمك أنك في قسم "د"، كان قلبي يدفعني أن أطلب الذهاب إلى القسم الذي أنت فيه، وكانت "حماس" في عقلي تعزرني وتقول لي:

اذهب حيث المجاهدين، ودعك من ذلك الفدائي.

الذي كان يذهب بي إلى حَدِّ الإغماء من الدهشة!!

إنَّ تلك التصنيفات والانقسامات تعرض علي من السّجان نفسه!!

من ضابط المخابرات الإسرائيلي ..!

استطاعوا شطرنا إلى نصفين في الوطن والسجون والإبعاد وحتى في المقاومة، انظر إلى حالنا الآن وطنين وحكومتين.

التصنيف وباء يا صديقي.

ليس الإسرائيليون وحدهم يتحملون المسؤولية، نحن الاثنان عملت قيادتنا على تفريقنا وتفريغنا من محتوانا الوطني الذي تربينا عليه في المخيم.

◉ الثاني من آذار 1991م

جريح انتفاضة

اشتاق لرائحة المخيم ..

للأعلام على الأسلاك ..

للحمام، للشقوق وصوت "أم بريص".

للسوق القصير، لبائعة (الرطب) عند دكان صيام.

للجلوس على البحر.

من هناك كنت أرى فلسطين كلَّ فلسطين.

البحر هو الشيء الوحيد الذي لم يخذلنا يا أخي.

عندما تجلس فوق جرفه تناظر انحناء القضية على عتبة فلسطين الغربية.

لماذا هؤلاء الناس ليسوا مثلي تسكنهم فلسطين، تظهر في أجزائهم ..؟

إن كنت تريد أن يصبحوا مثلك، فسوف تصبح أنت أيضًا مثلهم.

لا زلت تحب الفلسفة يا نبيل!!.

كلما مَرَّ بي طبيب حدثني في اللامنطقي، يوصيني وصايا لا منطقية، عنده منطقة للأمور غير المنطقة التي كنت توجع بها رؤوسنا.

تارة يقول لي: إياك أن تفعل، يدك بُترت..!

وكلما أوصاني وصية طبية يذهب عقلي إلى وصاياك اللاطبية..!

تعرف ليس يؤلمني شيء كما يؤلمني شعور قلبي بيدي، الجميع يتحدث عن قطع يدي؛ الصور، التلفاز، الإذاعات المحلية، أمي، الطبيب، الزائرون دموع عيونهم، دهشتهم، الشفقة التي يكيلوها فوق سريري صباح مساء، لكن قلبي غير مصدق أن يديّ قطعت.

قلبي يا نبيل يخبرني بحقيقة منطقية كتلك التي كنت تحدثني عنها، قلبي وعقلي يعطي يدي إشارة عصبية لقبض الأشياء، وأنا في الحقيقة

أقبضها، ليس ثمة وهمٍ أقول لك أقبضها بفلسفة، أو من غير فلسفة!!

المهم أني أقبضها.

كيف ستمسك الحجر في يدك بعد هذا البتر..؟

لم يكن الحجر باليد يحمل!!

بالقلب يحمل الحجر..

انظر هذا ما أحدثك عنه تمامًا، صدقني أنا أراهنك أن نقف عند شارع (بلوك C) عند دكان أم البدوي، أو وراء منزل عبد الغني ونرجم حجارة لتصل إلى جابية الحاج حماد، في الوضع الطبيعي هي لن تصل، والآن أخبرني كيف نجدها هناك بعد رحيل الجيش ..!؟.

كيف وصلت..!؟.

تبتسم أنت، تصدقني الآن!!

ملائكة تحملها ..؟ جان ..؟ سحر..؟

قلوبنا هي تلك الراجمات وليست أيدينا يا صاحبي.

تتذكر اليوم الذي أصبت فيه ..؟

ياه كنا مجانين يا صديقي، كنا ننزعج إن قال لنا أحد: إننا صغار.

صغار!! ودائمًا ما نكون في المقدمة، كنا رأس حربة المخيم، كان يؤنسنا حجم جيب الصرصور تذكر..؟

يومها قذف الجندي علينا قنبلة صوت لم تنفجر، وهربنا من جانب بيت دبور ماذا كان اسمه ..؟

الرجل الذي كان يشتري منا أسلاك النحاس ثلاث مرات أو أكثر، كنا كلما بعناه إياها نسرقها ثم نبيعه إياها مرة ثانية وثالثة، وهو لم يكن ليلاحظ رحمه الله.

أبو يوسف ..

أها "أبو يوسف دبور"، كان يبيع الدجاج في سوق المخيم، ثم نهرت علي أن أرجع وأرد القنبلة لأنها لم تنفجر، فانفجرت في يدي.

كأنك تحملني الذنب ..؟

لا يا صديقي ليس أنت من يحمل الذنب، ما ذنبك ..أنت..؟ في إسرائيل واحتلال إسرائيل ..؟

ما ذنبك في تضاريس المخيم وابتداء المواجهة ..؟

كان عَليّ أن أرجع القنبلة على الجيش مرة ثانية.

هذا هو المنطق من غير أيّ فلسفة.

◉ الرابع عشر من تموز 1989م

مخيم دير البلح

موسم البكاء

المخيم دعوة صريحة للبكاء، كلّ شيء كان ولا يزال ينقع الدمع في المقل، يحرقها كأنه صابون التاريخ ومسحوق الذاكرة.

من غير سبب طبي تموت النساء في المخيمات، كانت أمي لطالما تعول موتهن وتحمل مسؤوليته للقهر، للغصّات، للنكبات والنكسات والفواجع الزوجية والقهرية المتتالية، للزواج المبكر، لفضيحة الدخلة " دمها دم الحمامة - دمها دم اليمامة " لصوتهن " العيب – يطلع " لشعورهن أنهن عورة!.

للنساء في المخيم مكنون عاطفي مخنوق ومخزون ومخبأ في شراشف الذاكرة، وشراشف الشرف.

توفيت جارتنا "أم عمر" على غير موعد مع الموت، فالموت لم يكن الشيء المفاجئ في المخيم، كان يأتي

كل صباح مع الرصاص وحبات المطاط.

كانت عادةً تقليديةً لإعلان حلول موسم البكاء، كموسم شمِّ النسيم تمامًا!!

حيث كان يفترض أن نجهز البيض المسلوق للتلوين، ومن ثم توزعه الجدّات للأطفال على ما يحبون من لون.

أما هذا الموسم فهو على منوال كلّ على ما يحب من دمع. "أم عمر" توفيت ويبكيها ذويها من النساء بحرقة تدرك طول المسافة الزمنية للفراق والغياب.

هذا المساء هو آخر مشاهدة لوجهها في عملية توديع تراجيدية يصحبها الصياح والتهليل بالتكبيرات والتمنيات بالرحمة والمغفرة.

كنت أسمعها وأنا أتأرجح فوق مغسلة الموتى التي نحملها من المسجد

إلى البيت الحزين في المخيم هي وتوأمها النعشيِ.

حدثتني بنت أبي، أنها قد اكتشفت سرّ هذا الموسم الفظيع، قالت تعرف:

النساء في بيت العزاء مخادعات، الجميع كان يظهر أنه يبكي "أم عمر"، بينما هذه خدعة كبيرة جدًا!!

أنا مثلًا كنت أبكي زوجي المتوفى، وأم محمد كانت تبكي أخاها الشهيد، وأم خالد كانت تبكي أباها الميت، وأم إسماعيل كانت تبكي ابنها المفقود في سوريا من أيام حافظ الأسد، وأم أحمد كانت تبكي ابنها الأسير.

لم تكن أي واحدة منا تبكي أم عمر، فلكل واحدةٍ منا فاجعة كانت تبكيها بطريقتها الخاصة في محفلٍ مجانيٍ للبكاء!!.

كانت المرأة في المخيم أَرْجَلَ من الرّجل، وهذه حقيقة لا يستطيع نكرانها شاهد.

أذكر في ليلة كان فيها المزاح قد أجلسنا للفجر، في أحد " الأطواق الطويلة " منع التجول لثمانية أيام من غير خروج، سوى الخروج خِلسة لمبادلة الاحتياجات الضرورية، كان بيت جدتي في بلوك "c" جنوبي شرق المخيم، وبيت خالتي في السوق غربي شمال المخيم، هذان البيتان كانا يتبادلان الأشياء بالسرية المطلقة.

نقل بطيخة مثلًا: هو بمثابة عملٍ فدائي ..

البطيخ يا أصحابي لا يؤكل بالصيف، مذاقه مختلف في منع التجول.

وفي مرة كان أحد أخوالي يتباهى في نقل الأشياء، وأنه كان يحمل روحه لنقل الخبز مثلًا، بينما خالتي أصابته في رجولته .. عندما أخبرته أنها تتنقل بروحين وليس بروحٍ واحدة، وهي تحمل في بطنها طفلها البكر.

مَنْ .. من الرجال حمل روحين في المخيم ..؟

للمخيم باطنةٌ لم نكن لنعيها لولا تقليبُ الذاكرة بعد هذا المضي في العيش، كانت أبواب الحياة مؤصدة للنجاة، وأن محفل البكاء والموت قد أصبح تقليدًا موسميًا.

◉ ذكرى وفاة أم عمر 1991/6/23م

المواجهة

لماذا تأخرتم...؟

ثمة أشخاص لا نعرفهم، كانوا يقفون في الطرف الشرقي من البَيَّارة.

المهم أن لا يكون قد شاهدكم أحد وأنتم تدخلون..

نحن واثقون أنه لم يشاهدنا أحد، ماذا يفترض علينا أن نفعل الأن..؟

انظروا إلى هذا الدلو المملوء بالشيد مع فرشاتين للدهان، سوف نملأ نصفه بالماء ومن ثم تقومان بدهان الجدران الكبيرة في المخيم، وبعدها سنلحق بكم تِباعًا؛ لنكتب على الجدران : أن يوم غدٍ مواجهة مع الجيش.

انتظروا..!! عليكم ارتداء هذه الملابس، وأحكموا اللثمات على رؤوسكم جيدًا.

ما هذه ..!! ملابس..!!؟

ظننتها أعلام فلسطين.

نحن قمنا بخياطتها لتبدو كالأعلام، لا تنسوا أن تضعوا أقدامكم في أكياس بلاستيكية حتى لا تكشفكم أحذيتكم.

ألن نحمل أيّ سلاح..؟

لا... لا... هذا ليس ضروريًا؛ نحن سنكون في ظهوركم مباشرة، وسوف نحمل هذه السواطير والجنازير معنا، حاولوا أن تتحدثوا مع بعضكم بالهَمْس والإشارة فقط، توكلوا على الله لنمضي الآن.

الحمد لله انتهت مهمتنا على خير..

ما الذي علينا فعله الآن..؟

غدًا في الصباح سوف ننقسم إلى قسمين، الأول سيرتدي الملابس ويذهب إلى مدارس الإعدادي والثانوي، لإخراجهم من أجل المشاركة في المواجهة، والثاني سيأتي هنا للبيارة ويأخذ الإطارات ليضعها في المفارق التي اتفقنا عليها لإشعالها،

مع وضع بعض الحواجز والمتاريس، كي نمنع عربات الجيش من ملاحقتنا.

أخرجتم المدارس الأربعة..؟

نعم فعلنا.

وأنتم على الأكيد أن الله وفقكم، في إشعال الإطارات ووضع المتاريس..

انظر ها هم الشباب والطلاب يتوافدون إلى المواجهة..

علينا الآن أن نتصدى لقنابل الغاز المسيّلة للدموع..

نعم وضعنا هناك دلوين من الماء، عندما يقذفون علينا القنابل، ينطلق أحدنا ويضعها في الماء.

هذا جيد حاولوا منع الصغار من التمادي في منتصف الشارع.

"بَسّام" حجارتنا لا تصل إليهم، إما أن نقترب أو نستخدم المقاليع و"الشديدات".

أنا سوف أقترب، المقاليع في حقيبتي عند الزاوية وليس لدينا إلا ثلاث "شديدات" في حقيبة خالد.

بدأ الجيش بإطلاق الرصاص!!

لا لا هذا رصاص مطاطي لا تخف!.

بَسّام دعنا نرجع.

قلت لك تقدم، هل علبة الكبريت ما تزال في جيبك..؟

في جيبي نعم.

أشعل لي هذا الفتيل، وأنا سأقترب أكثر لأحرقهم "**بالمولوتوف**".

هذا رصاصٌ حَيْ.! بَسّام.. بَسّام أصبت ..؟

هل أصبت ..؟

ها هو يتحدث، أين الرصاصة ..؟

في الصدر بَسّام توقف عن الحديث!!!

أخبروا أمي أن تسامحني.

بَسّام، شهيد .. شهيد،،،

استشهد بَسّام عبد الحافظ عواد في
صبيحة الرابع من مايو سنة 1992م
في مواجهة مع الاحتلال الإسرائيلي.
◉ الرابع من مايو 1992م

الطعمة

أنت... أنت.

وأنت هو أنت.

نبيل.

نضال.

نعم أنا نضال أقصد نبيل.

وأنا كنت سوف أقول لك: إني نبيل وأنا نضال!!

مالنا قد تهنا في أسمائنا ..؟

ماذا تفعل هنا..؟

أنا آتي لأخذ حصتي من دواء الضغط. وأنت ..؟

ألسنا من نفس الجيل..!

أنا مثلك أيضًا آخذ حصتي من دواء الضغط.

ليس ثمة فلسطيني لا يمرض بداء الضغط عند الأربعين، بعد هذا الهَمّ الذي يتراكم فوق أكتافنا عامًا بعد عام.

تعال نجلس إلى أن ينتهي الازدحام على شباك الدواء.

تدخن؟

نعم أفعل.

تفضل،،،

تسلم.

قبل قليل انتهيتَ من واحدة.

مالك تبتسم؟

أبتسم لحرف النون الذي لطالما يجمعنا في المدرسة، و الطعمة ثم السجن، وها هو يجمعنا مرة رابعة في أخذ حصتنا من الدواء في المستوصف، قد تكون القبور بالأبجدية هي الأخرى.

أطال الله في عمرك يا رجل.

نحن نموت غير مكرهين على الموت، نموت بإرادتنا،

و أظننا مسجلين عند الله أبجديًا.

ماذا تفعل في حياتك؟

أنهيت حصتي من الدراسة والسجن، ثم استأنفت دراستي الجامعية.

تزوجت؟

لديّ أربعة أطفال "بنتان وولدان. وأنت؟"

عندي ستة عيال، بنت واحدة وخمسة أولاد.

ما شاءِ الله ماذا ينادونك؟

أبو محمد.

وأنت؟

أبو سيف.

ياااه!!

منذ خمسة وعشرين عامًا لم نلتقِ، وها نحن نلتقي عند شباك الدواء في الطعمة.

أها .. تذكر كان مكان هذا المستوصف توجد الطعمة، كان الباب هناك في الجهة الشمالية عند المدخل يقف عليه "أبو يوسف الدقران" لفحص الكروت.

أذكر.

وبعده مباشرة كانت تقف "يسرى أبو دقة" بالثوب الفلاحي والحذاء الطويل.

لا "يسرى أبو دقة" كانت عند باب الخروج في الجهة الجنوبية للتفتيش.

صحيح كان ممنوع علينا أخذ حصتنا من الخبز إلى المنزل، كان الخبز مذاقه رائع، كان لكلّ واحد منا رغيفان، لم أنسَ إلى هذا اليوم طعمه في فمي، أذكر أن الكروت كانت ثلاثة ألوان، كان معي أنا كرت أبيض لوجبة كاملة.

صحيح، رغيفان.

والكرت الأخضر أو هو الأزرق كان نصف وجبة، كان معي رغيف واحد، وكان هناك كرت زهري اللون أظنه ربع وجبه.

أنا إلى الآن لم تذهب طعمة عين السمك من فمي، كان "العجرودي" يعطينا إياها ويوصينا أن لا نمضغها، نبلعها بلعًا، لكني في يوم مضغتها وما أزال نادمًا، أساءت علاقتي بالمأكولات البحرية كلها.

"العجرودي" كان أكثرهم مودة، كان يعطينا الأشياء مع وصية.

"وأبو محمد الحليب" كان ودودًا هو الآخر، نحن سميناه "أبو محمد الحليب" لكنه من عائلة ثانية، على ما أذكر أنه من عائلة "جودة"، كان يَصبُّ لنا الحليب في أكواب من الألمونيوم، وكان الحليب نوعين: حليب حلو، وحليب كنا نقول له: حليب الهول مالح.

انظر هناك مكان المختبر والصيدلية، كانت الطاولات من سيقان حديدية مثبتة بالأرض ومكسوة برخام أبيض في الجهة الغربية، "ونظمي الخطيب" كان يجلس هناك بكشرته على الطاولة كان يقال له "أبو جمال".

صحيح أبو جمال.

المطبخ كان بالجهة الشرقية هناك، عند غرفة "عماد تايه" للأمراض المزمنة، كان فيه "مسعود أبو عيشة"

أبوه لأبي أحمد مسعود الذي يعزف على الكمان، "وعباس مهنا" جده لحمدي، "وأبو مروان حسين" "أبو عطوان" "وعبد المالك" "أبو ربيع".

تصدق أن صحن الكاكاو الألمونيوم ألذّ من بوظة كاظم، كان صحن الكاكاو يوم الخميس.

صحيح يوم الجمعة فلافل باللحمة، والفاصولية يوم الثلاثاء، والأربعاء كان الحليب مع المجدرة، والاثنين كان رز مع طبيخ، يوم الأحد كانت الطعمة تقف، لا أذكر يوم السبت.

وأنا مثلك تخونني الذاكرة ..

أما العصائر فكان عصير البندورة، والبرتقال، وكل الأيام كان هناك إمّا برتقالة أو تفاحة مع الوجبة، أنا لا أذكر مذاق الأكل في بيتنا مثلما أذكره في الطعمة، ظلت الطعمة حتى حرب الخليج، وامتدَّ وجودها إلى العام الحادي والتسعين، ثم أغلقت وبُني مكانها هذا المستوصف.

السؤال يا نبيل هل كنا جوعى فعلًا لِيُقَام لنا طعمة..؟ أظننا كنا أيقونة قضية، يفترض عليها تمثيل الحرمان والجوع والشتات، لكننا كنا كأشجار مقلوعة من أرض القضية، أشجار تتسربل بجذورها التي من غير طين في المخيمات، وكان يفترض أن نكون من غير أوراق ولا ثمار، لكن الفلسطيني دائمًا ما يفاجئ أبالسة التكتيك العربية والدولية.

صحيح أننا كنا أشجارًا من غير طين، لكننا أثمرنا أجيالًا إلى الحدِّ الذي أزعجهم، نحن اليوم نشكل مليون ونصف المليون لاجئ في مخيمات قطاع غزة، مع أكبر عملية إنتاج بشري في هذا العالم القذر.

ألا تتساءل يا نضال عن اندفاع هذه الكمية من الحروب الإسرائيلية اتجاهنا..؟!

إنَّ عملية القضاء على النسل وقطع الجذور هي تكتيك أزلي، حتى أنها قبل وجود الصهيونية نفسها.

يا أخي كنت أفكر أن ستة أطفال عمل بطولي، لكنه يبدو أن علينا إنجاب المزيد من الأجيال.

تعود وتبتسم!!

أبتسم لأن هذا المستوصف لا يزال يلعب اللعبة نفسها، لعبة تقليم الجذور.

تدري أن هذا المستوصف يوفر عدة برامج لمنع الحمل، بكميات كبيرة ومجانية..؟

الآن أصبحت أتمنى لو أنهم أبقوه طعمة.

◉ الرابع عشر من نيسان 2013م

بابور الطحين

للفلسطيني أمهات متعددات ..

وللإسرائيلي آباء متعددون ..

وهذه حقيقة لا تدعو للكراهية.

أغلق الاحتلال الإسرائيلي شارع منطقة قاعود في مدينة دير البلح وسط قطاع غزة، بالبراميل الإسمنتية من ناحية "جابية" – قاعود – بالضبط [1].

وهذا الإغلاق لم يزعجنا كونه يعطينا ضمانة بأن الجيش "مش راح يحلقلنا[2] زقل[3] الحجارة على الجيش يحتاج في أقل تقدير إلى مسافة مئة متر، أما "الشديدة[4]" فهي تحتاج إلى

---

(1) الجابية هي بركة مياه للاستخدام الزراعي مرتفعة عن الأرض تابعة لبئر مياه جوفي يكون في جوارها ماكينة لضخ المياه، فيها تعمل على السولار.

(2) يلتف علينا من ذلك الشارع.

(3) رمي الحجارة.

(4) غصن شجرة بحجم إصبعين على شكل علامة النصر يربط بهِ حبال مطاطية ليصبح سلاحًا لقذف الحصى إلى مسافات بعيدة.

سبعين مترًا، و"المقلاع[1]" يحتاج إلى مئتي متر.

فيما الزجاجة الحارقة "المولوتوف[2]"، فهي تحتاج إلى خمسين مترًا على الأقل، وأما الشتيمة، "يا ابن الزوناه[3]، يا دافوك بروش[4]، يا موشوكاع[5] تحتاج إلى مسافة خمسمئة متر، ومعها الهتافات التحريضية والمعنوية، "خيبر.. خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود"، "ولع البابور ولع"، "بالروح بالدم نفديك يا فلسطين، بالروح بالدم

---

(1) عبارة عن حبلين متساويين في الطول، شديدي المتانة في أسفلهما جلدة يوضع فيها الحجر ليصل إلى مسافات بعيدة.

(2) زجاجة للعصير أو لمشروب الكولا، توضع بها مادة البنزين أو السولار أو الثنر، ونضع في عنقها حرقة صغيرة مبلله ثم نشعلها ونرميها على الجيش، وعند ارتطامها في عربة الجيش تنكسر وتنتشر النيران في أرجاء العربة.

(3) كلمة عبرانية معناها يا ابن الحرام.

(4) كلمة عبرانية معناها "مختل عقليًا".

(5) كلمة عبرانية معناها "مجنون".

نفديك يا شهيد"، لتصل إلى آذان الجيش ويسمعونها.

عملت سلطات الاحتلال على إغلاق هذا الشارع حتى لا يتسنى لنا التعامل بكل ما ذكر من أدوات؛ فهي تتمركز عند دوار بابور الطحين الذي أصبح اليوم يطلق عليه دوار البركة.

وكان إغلاق شارع جابية قاعود يصب في مصلحة الاحتلال، بهذه الطريقة لن نجد شارعًا آخر سوى شارع السلام الذي يبعد عن نقطة تمركزهم قرابة الألف متر، وبهذا نفشل في إيصال جميع أدوات الانتفاضة وحتى إيصال الشتيمة والهتافات، لذلك كان علينا أن نجد حلًا مواتيًا للمواجهة "**بابور الطحين**".

كان بابور الطحين عبارة عن مطحنة للقمح لجميع أهالي مدينة دير البلح، يدرسون ويطحنون القمح في ذلك البابور، وهو بالأصل تابع لعائلة

"أبو قاسم" عائلة دراوية الأصل، فيه مطحنة قديمة ذات تروس تعمل على الكهرباء والسولار، وله سقفٌ مخروطي من الصفيح، ويطلّ على دوار بابور الطحين الذي يتمركز عنده الجيش.

من الجهة الجنوبية على الشارع العام لمدينة دير البلح، وله من الجهة الشمالية مدخل ضيق مع أحراش من شجر السدر والنخيل والزيتون، وبيتٌ قديم مهجور.

اتفقنا أن نخوض هذه المغامرة من المسافة صفر مع الجيش!!

كان في الدوار عربة صرصور[1]، وعربة بور[2]، وسيارة الحاكم العسكري رمادية اللون، بعض الجنود يترامون على الأطراف عند محطة

---

(1) عربة للجيش صغيرة الحجم تحمل سائقًا وجنديين.

(2) عربة كبيرة تحمل من ثمانية جنود إلى اثني عشر جنديًا.

عكيلة للمحروقات التي كانت مكان منزل "رسمي أبو شعبان"، وبعضهم تحت معرشات المحال عند منزل "أبو بركة"، وآخرون عند زاوية "أبو سليم" مكان مطعم شاورما العمدة اليوم.

جرت العادة أن نشعل إطارات الكوشوك[1] على هذا المفترق في صباح كل مواجهة.

كانت غيوم (الكوشوك) تتباطأ في ذهابها للسماء، عندما أنهت الإطارات مهمتها بالاحتراق لأجل فلسطين، وتحولت غيمتها المجنونة السمراء إلى ضبابة بيضاء تلاطف أسلاك الكهرباء، بعد أن أجبر الجيش بعض أصحاب المحال سكب الماء عليها.

انتهاء اشتعال (الكوشوك) كان بمثابة ناقوس انتهاء المواجهة، لكن

---

(1) إطارات السيارات السوداء.

فكرة بابور الطحين سوف تمنحنا الفرصة للإطالة هذه المرة.

تجاوزنا عدة موانع من الحواجز الشائكة في أرض تابعة لعائلة "أبو عيسى"، وعندما وصلنا للنخلة الصفراء المعمرة التي تشعر أنها تصافح بجريدها السماء من فضيحة طولها بالمدى، وكانت مقابل منزل عكاشة بالتحديد عندما وقفنا أسفلها.

كنت أناظر ظلها الذي يبعد عن الجذع مسافة ثلاثمائة متر غربًا في الصباح عند التاسعة، حتى يصل حافة جابية قاعود في الطرف الجنوبي الغربي من النخلة.

بتروي الفدائيين الصغار دخلنا البابور بعد عناء الخوف والتوتر ومعاناة شق الملابس من الأسيجة والأشواك، ثم صعدنا فوق صفيحه الساخن، ليس من الشمس وحسب، بل لأننا نطأ أماكن لأعمار أكبر من أعمارنا، لم ينصفنا أحد عندما أطلق

علينا أطفال الحجارة؛ لأننا ببساطة كنا فدائيين من الجنس القصير.

الأعمار والأطوال والمسافات عناصر ملهمة للفلسطيني على مدى عمر قضيته، كانت لدينا رغبة شديدة للصراخ، للنشوة للشعور بالنصر المرتفع فوق العدو، للنصر العلوي، لطالما كان الإسرائيلي فوق كل شيء فلسطيني.

هذا الصباح ثلاثة أطفال يقلبون جذر المعركة.

أخذنا نصرخ ونصيح كالديكة "الله أكبر، الله أكبر" ونحن نرفرف بأيدينا التي بدت كالأجنحة تمامًا وهي ترمي الجيش بالزلط[1].

هرب الجنود في انحناء معاكس لحجارتنا، ونفذت الحجارة من طيّ أجنحتنا، نظرنا للأسفل في نية تلقيم الأجنحة بمزيد من ذخيرة الحجارة،

---

(1) حجارة ملساء من الصوان.

لكننا وجدنا المفاجأة الصاعقة تنتظرنا في الأسفل.

أربعة جنود، أحدهم يبتسم لنا ابتسامة الرابح الأخير، لا أعرف حينها كيف استطعنا نحن أيضًا التبسم، التبسم الحارق الذي يأتي قبل الهزيمة بلحظات.

جنود مرجومون بحجارتنا في جنوب البابور، وآخرون يبتسمون لنا ابتسامة الفوز والتشفي، ابتسامة ملؤها التوعد بالسلخ والكسر، وقد يصل الأمر إلى حد القتل، ثلاثة أطفال في مواجهة أخيرة مع أربعة جنود معتمرين قبعات حديدية وأسلحة جليلو[1].

هؤلاء الحمقى كانوا يظنون أننا أطفال، لكننا في الحقيقة كنا ثلاثة سعادين، ليس من لحم وعظم، بل

(1) بندقية إسرائيلية كانت في الخدمة لجيش الاحتلال قبل بندقية M16.

ذوو أجسام مطاطية كالزيت نمزط مزطًا[1].

للوهلة التكتيكية ودون تردد بل على الفطرة الانتحارية كالعملية الاستشهادية تمامًا ..

قفزنا قفزة واحدة كأننا طفلٌ واحدٌ له **ظلاّن** وسط كومةٍ من الحجارة العتيقة البالية، وكومة من الجنود الإسرائيليين أصحاب الرائحة النتنة.

دُرنا بين أيديهم كأننا إعصار من عاصفة تسببت بها معاناة الفلسطينيين وتشتتهم وتشردهم في أرجاء الأرض، "ومزطنا مزطًا من بينهم"، وهم يصيحون بالعبرية، "زي لو كتان"[2]، تزروك أفانيم[3].

(1) نمزط مزطًا أي أننا صبيان لدينا مرونة في أجسامنا كأنها مدهونة بالزيت أو من غير عظام.

(2) كلمة عبرانية معناها: "هؤلاء ليسوا أطفالًا".

(3) كلمة عبرانية معناها: "يرمون الحجارة"

عندما وصلنا إلى نقطة الالتقاء الأولى عند النخلة المعمرة، وجدنا بقية الجنود في انتظارنا، لكنهم يبدو عليهم الحيرة من أمرنا، لم يتوقعوا أننا فدائيون صغار، فتح واحدٌ منهم ذراعيه كأنه المشتاق في أحد المطارات، فرّ جهاد ناحية منزل الحاجة معزوزة "أبو عيسى"، وقفز محمد عن حائط منزل "أبو عبد الله صباح"، وبقيت أنا في حيرة المكان، وفي دهشة الاحتضان.

وكأن امرأةً سقطت من السماء كالملاك المنجد المغيث "الحاجة أم منير عماد" بعمر أمي أو هي أكبر بعدة سنوات، سمعتها تصيح اسمي بالتكرار السريع والملهوف...

نبيل، ثم فتحت ذراعيها، حينها فقط ذهبت عني حيرة الأماكن وعرفت وجهتي للاحتضان، وثبت نحوها وارتميت بين ذراعيها، وقفت بينها وبين الجنود، كالوقوف ما بين الشك واليقين.

تحدث أحسنهم للعربية بعد أن مَدّ ذراعه فوق كتفي الصغيرة وعصرها قائلًا:

"هذا الولد يرمي حجار على جيش الدفاع"

قالت له بعنترية: "جيش سخام البين[1]"

هذا ابني يا خواجة.

ابنك!! .. "إنتِ يخجة كلهم ابنك!!"

"آه يخواجة كلهم ابني"

- الفلسطيني إلو ميت أم واليهودي إلو ميت أبو!!!! -

ثم لحفتني بشالها الأبيض المطرز بقطوف العنب الصغيرة العنابية، وذهبتْ بي كالواثقة الشامخة - رحمها الله -.

◉ السابع عشر من تموز 1990م

---

(1) سخام البين أي أنه شيء بلا فائدة لا يضر ولا ينفع في اللهجة الفلسطينية.

قهوة أبو غليون

كراسي القش متناثرة بأقدامٍ من القلق، كأن الزمن بعثرها ليجلس عليها الحائرون، بعد رحلة الذهول لهم ولآبائهم في شق طريق الحسرة من بلداتهم وقراهم إلى المخيم.

بعد ظلمة الواجهة من الفاجعة إلى الهاوية.

الأشياء، الأمنيات والأحلام كلها تهاوت في منتصف الدهشة، وأُخذ عنها صورٌ لا تشبهها أبدًا عُلِقت على جدران منازل القرميد.

وبعضها تُرِكت في الطريق بنية الاستدلال عند مآزر الرجوع ..

الهجرة تشبه مدينة قسطنطينية المعلقة في جدل الذاكرة عند الأدب الجزائري.

سعف النخيل في عريش القهوة يداعبه نسيم البحر، و(يصيص) موسيقى من ألحان موجعة بالوخز ينقل رسائل الريح من عكا وحيفا

ويافا، ليعود بالإنسان الفلسطيني عشرة أزمنة إلى الوراء ليتكيف المالك كيف يصبح أجيرًا!!، وليتعود الكريم كيف يصير ضيفًا.

"أبو فسكي أبو السعود" يرفع حاجبيه، وهو في وضعية القرفصاء كأنه يحاول التجذر والتشبث في الأرض، عند باب القهوة، يقول له "أبو محمد أبو غليون" صاحب القهوة: "متلزقش حالك بالأرض يبو فسكي إن شاء الله مش مطولين وراجعين".

يضج أبو فسكي بقهقهة من الضحك

ويقول لأبي غليون :

بتحلم ..

أبو فسكي أقل عقلاء المخيم عقلًا ..

كان يعرف أننا نحلم!!

يمرّ المختار "صلاح الجرجاوي" وببشاشته المعتادة يقول: "السلام عليكم يا فلسنجية"

يرد عليه "أبو شوكت الرواغ" :

كيف إحنا فلسنجية يا مختار..؟

صحيح مش لقيين لا شغله ولا عملة بس تخافش بنبيع كلوينا ولا بنبيع القضية ..

"لا بخافش عليك يا أبو شوكت" قال المختار صلاح.

رد عليه أبو شوكت :

"تفضل يا مختار نشربك ينسون"

لا أنا مليش على قعدتكو أجيالي بقهوة "أبو حامد" هذي قهوة شباب" رد المختار صلاح.

يقفز أبو فسكي، كأنه طائر سنونو، وترتطم رأسه في زاوية العريش، بعد أن قال لأبي شوكت :

"صاير تفهم يبعيد، صاير بتعرف تحكي"

يهم أبو شوكت للإمساك بأبي فسكي، لكنْ رأسه تكون قد شُجَّت من زاوية العريش، وانهمر الدم منها.

بعاطفة السواد على البياض، فأبو شوكت رجلٌ أسمر البشرة، يمسك أبو شوكت برأس أبو فسكي، ويصيح على أبو غليون:

الحقنا يا أبو غليون رأس أبو فسكي "انطبش".

يقول أبو غليون احزق على الجرح يا أبو شوكت وعاك تفلتها هلحين بحطلوا شوية قهوة بتوقف الدم.

عندما كنت هناك قبل ثمانية وعشرين عامًا لم أسأل كيف يمكن للقهوة أن توقف الدم..؟

الآن أسأل : أين كانت تلك القهوة عندما شُجَّت النساء في مذبحة دير ياسين ...؟

أين كان أبو غليون عندما ذُبح الأطفال في "صبرا وشاتيلا" ..؟

كيف يمكن للقهوة أن توقف
الدم..؟
سؤال يربك الماضي والحاضر
والمستقبل ..!!
سؤال يضجُّ بالطفولة والشبيبة ..!!
سؤال يتلبس الكهولة والهرم لكلّ
فلسطيني عاش في المخيم.!
◉ السادس من مايو 1990م

أيتام الأرض

أنا الطفل الذي تأكله الحيرة،
تُعشش في مُنتهاه.

أحاول أن أخرج من هذا الطوق الذي يوقف الزمن عند زقاق المخيم، ويُخرِج المبدعين واللغويين والرياضيين والفنانين، ويرتطم في المواصد في الأقفال، في المعابر والحدود والمغاليق البرية والبحرية والجوية، ومكائد الحصارات الدولية والإسرائيلية والمصرية والفلسطينية.

نحن أيتام الأرض، النائحون في أرجاء الدنيا، المخيم كَوَّن فينا كيانًا بلوريًا ناعم الملمس ليس فيه عُقَدًا للكراهية، لا يشظى منه إلا الشهداء في ذهابهم للجنة، والفدائيون في طريقهم للمقاومة.

في المخيم أنفاق في يتم الأرض حفرة، تذهبنا في المخيلة إلى بلداتنا وقرانا الأصلية، لنصلي في القدس

ونتخلل في الخليل، ونشرب من مِلح يافا، ونقفز من فوق سور عكا.

كانت صَفَاقَةُ مِنّا أنْ حَوّلَنا المخيمُ إلى ثكنة أيدولوجية مملوءة بسلاح الغضب والكراهية والتحريض من الفلسطيني على الفلسطيني الآخر.

كان المخيم ودودًا ومتراحمًا ..

ما الذي حدث ..؟

بالفعل ما الذي حدث ..؟!

الحصير قبل معرفتنا غير الضرورية بالسجاد مربعات بنيةً وأخرى في خطوط خضراء وبرتقالية المظهر، خمسة أقدام وسبعة كفوف، يد ووجه واحد، وأربعة أثوابٍ فلسطينيةُ الهيئة، واحدة بزركشة التطريز الفلاحي المسمبل، وأخرى فضفاضية اللون.

وثالثة ترتدي السواد بعد مأتم .. ومعها من تؤازرها من الخالات والعمات.

وأنا بين الصديد واللحم أجلس في صورةٍ من الذاكرة، أجسّد شكل طفلٍ كأن الجميع يعرف منتهاه.

لماذا كنت أبتسم ..؟

لا أعرف ولا أحد يعرف، وهذه الصورة المخيمية فوق (الحصير) هي الأخرى لا تعرف.

أن لا تعرف ..!! : هي الأبوة الشرعية للتعلم داخل روحك وانتقائك الأدبي، وحتى انتقائك المعرفي.

ليت فصائلنا الفلسطينية تقول: لا نعرف..!

الجميع أصبح متخمًا بالمعرفة.

تتوسد يداي الصغيرتان الناشفتان فراشاً لكل خيط فيه حكاية، نقل وحكاية إبرة وحكاية عتق.

سألني أحدهم عن سبب الغبار على قدمي في تلك الصورة، أجابته أمي: أن جيلي بالكلية لم يكن يرغب

الانتعال، ولم تكن أزقة المخيم إلى ذلك الحين بـ (البلاط) عبدت.

كنا حفاة ويا ليتنا بقينا كذلك.

كانت أمي تحاول بقدر استطاعتها إخفاء مناسبة تلك الصورة ..!!

لكن تكوين الألوان والأعمار فيها أرغمها على إفشاء المناسبة.

"مأتم أبيك قالت" ..

مأتم أبي..!!

وأنا أضحك!!

كل الأيتام الصغار ضحكوا في مأتم آبائهم.

البكاء جهدٌ فوضويٌ غامض في الروح يستخلصه الآخرون لأنفسهم، لا أحدَ يخبر أحدًا كيف تمكن من البكاء ..؟

للبكاء أثرٌ سحري على طمس الغَصَّات والفواجع والخسارات.

البكاء هو السرّ الروحي الذي يأتي مع السقطات الشاهقة في قصصنا.

◉ العاشر من نيسان 1982م

سيمفونية الحجر والرصاص

في الأول الثانوي تكون مجنونًا عن قصد، مجنونًا مع سبق الإصرار على الجنون، تعتدي، تبطش، ترفع صوتك حديث الخشونة في عرض شارع، تملأ عينيك من فتاة جميلة كأنك أول مرة في حياتك تشاهدها، تومئ لها بعينيك "تغمزها" ثم تهمس لها بكلمة جبانة ليس لها أي علاقة بالغزل.

تركل صفيحة ملقاة في الطريق لتثبت لها قوة ساقيك، تجلس على حافة رصيف باستمتاع لن تعرف مثله طيلة حياتك المتزنة فيما بعد.

تمشي فوق جدارٍ، تتسلق شجرة ليس عليها أي ثمار، وما كان عليك تسلقها، فقط لترضي نفسيتك "الطرزانية"، تستمع لأغاني جورج وسوف، فقط لأن صوته يشبه كل الأصوات، وتستطيع تقليده بسهولة مطلقة، ترفع صوتك أعلى من صوت

التسجيل، لتعلم كل فتيات حَيّك أنك من الممكن أن تصبح محبًا ورومانسيًا.

تذهب إلى بيت صاحبك لا تقرع جرسًا ولا تطرق بابًا ولا تنادي، فقط تضع إصبعين في فمك وتصفّر..

ثم يقول لك صاحبك:

"هيني جاي" ..

تظل تصفّر وتصفّر، حتى يصيح أبوه:

"قل لصاحبك يسد بوزو .. الناس نايمه"

حينها فقط ومع بعض الخجل تتوسد الحائط، وتتوقف عن الصفير.

وعندما تمرّ عن مجلس جدّك تصيبك حيرة الفهم للمعاني والكلمات، تسمع أحدًا يغني يقول لك جدك:

إنها "أم كلثوم"

تقول له – أها – "أم كلثوم"

كأنك صاحب أُذن موسيقية تعرفها منذ زمن!.

ثم تدخل في حيرة التفتيش عن المعاني التي سمعتها، تأخذ شريط (الكاسيت) خلسة من بين الحصير وفرشة جدك، تتعثر في الغليون وباكيت السجائر الشامي، وتشمّ التبغ لأول مرة في حياتك.

رائحة تبغ جدّي جميلة يا أصحابي، هي صاحبة الجرم السببي في أن أصبحَت مدخنًا.

تجلس بآذان محدقة للسمع مستبصره للأصوات وتشعل الكاسيت.

يكون جدّك قد استنزف نصف الأغنية حتى أوصلها عند "تفيد بِإيه.. بِإيه يا ندم يا ندم وتعمل إيه.. إيه يا عذاب يعذاااب" وإلى أن يصل صوتها إلى مسمعك وهي تقول: "كفاية بقى تعذيب وشقا، ودموع في لوقا، ودموع في فراء.

تدخل أمك وتصرخ فيك :

"والله ليفضحنا جدك رَجِّع الأغنية لعند ما كانت بالزبط ".

والآن من الذي سيفكّ هذا الربط بينك وبين سيدة الغناء العربي ..؟

ما هذا البلاء الذي لحق في بكينونتك الطائشة، وأصبح يهدئها ويجعلها تسرح وتتفكر وتلتهي بكلمات ما عرفت إلا نصف معانيها ..؟

"أم كلثوم" تحدِث لك نقلة نوعية من الصخب إلى التأمل، من "الفوعان" إلى التصوف ..

إنه يوم الأصوات الأول "علم الصوتيات".

وصوت رصاصتين تتبعهم فجة صوتية ...

الآن أصبحت تميز بين الأصوات القاتلة والأصوات الباعثة على الحياة.

تسأل أختك سمعتِ ما سمعت..؟

أم أني أتوهم ..!!

تجيبك الأكثر منك خبرة بصوت الأصوات – جدتك – :

هذا صوت رصاصتين ويتبعهما قنبلة غاز مسيلة للدموع.

جدتي خير من يميز الأصوات، فهي من وراء الجدار كانت تعرف صوت شاحنة أبي من شاحنة الجيش، وكانت تميز صوت " أبو علي الزاملي" الذي كان يقشّر البطيخ البلدي ليخرج منه البذور، ومن ثم يوزعه على الجيران من غير بذور، عن صوت "أبو محمد الزاملي" الذي كان يبيع الخيوط و"المغّيط" في الأسواق، مع أنه لا أحدَ في المخيم يستطيع تمييز الصوتين.

لا وقت لفضول الخبر ..

من النافذة الشرقية لبيتنا "صهيب أين الجيش..؟

الجيش على رأس الشارع عند "دار تيم".

تقفز وأنت مصغٍ للأصوات، كلّ رصاصة تفوتك بمثابة ضياع فقرة موسيقية مع الرصاص يتبعها لحن تكبيرة من على مئذنة مسجد ليعلن عن ارتقاء شهيد إلى السماء.

كان إذا ما يطلق الرصاص وأنت لست في مواجهته بصدرك المجنون، عبارة عن استنزاف للمروءة، خيانة صوتية للمخيم.

الآن ستعزف سيمفونية ما بين الحجر والرصاص من على جبهة صدرك..

◉ 1993/4/12م

عرس المخيم

هذا الملح القاعد على المذاق من شفاه جدتي، مع حسرة السرد في لمعة العين ينصب في قنا الخد من عند الأنف معين دمع، يتململ ويستقيم على خدها ليعلن النصر فرحًا، اليوم عرسٌ يا بن ابني.

أما خيط الحرير كامل الثَنْى، الذي وضعته على رمشها؛ ليثقل الرجفة ويحسن الضحكة ويزيد الروعة والخِفّة، في تجاعيد وجهها الغضب، كأنه قصة نورانية ما بين الماضي والحاضر.

كانت جدتي تُطرّز على الخيش قببًا وجمال محملات بالزيت، لتضيء في القدس سراجًا وهي جالسةٌ في المخيم.

كانت العلاقة ما بين المخيم والقضية، كأنها حبل شريان يتدفق فيه الوصل كصلة الأرحام تمامًا، فإذا ما ارتقى في القدس شهيدٌ أقمنا له في المخيم مأتمًا، وألغينا أعراسنا، ورجمنا بالحجارة سقف من يبقي في بيته عرسًا، هذا النوع من الاعتداء كان اعتداءً شرعيًّا في المخيم، يحمل صَكَّ غفران من الإثم، فالقاضي مُلثّم والشرطي مُلثَّم، والعشق ملثم، لا شيءَ مفضوحٌ للعيان إلا وجه الشهيد، وبيانٌ من ورق يوزع في

المساجد ويلقى في الطرقات، ومغامر مَن يقرأه.

كان المخيم يلبس أعلام فلسطين وقنابل الغاز المسيل للدموع المعلقة على أسلاك الكهرباء، ويتزين بالمتاريس وغيوم (الكوشوك)، ويمشط شعره عند الصباح بالشهداء.

العرس في المخيم يبدأ بالزغاريد الفاضحات للفرحة المعلنات المشهرات لعقود القران، وينتهي بنقش حَنّاء على أكف الصبايا الماشيِات في السوق.

العرس في المخيم عرُسان: واحدٌ للقاء، وآخر للفراق، كان في بادئ الأمر يختلط عَليَّ الفهم، عندما كان يُقتل في المخيم شابٌ، ثم أجد أمه **تطلق الزغاريد** كالرصاص من فمها، والجميع من حولها يحرضونها على السرور.

قائلين لها: "افرحي يم الشهيد وزغرتي"

هذه الكلمات مُكرّرة السمع عندي باختلاف كلمة واحدة فيها بدل أن يقال:

"يَمّ العريس"

كان يقال: "يَمّ الشهيد"

والذي كان يزيد اللَّبْسَ عندي دموع الأم، في كلا العرسين تبكي.

عندما كنا نفرح في المخيم، لم نكن نجد ذِروة لفرحتنا سوى البكاء والزغاريد.

ولما كُنَّا نفارق فلذات أكبادنا في المخيم.

لم نكن نجد ذروة لمفارقتنا سوى البكاء والزغاريد.

لقد اختلط علينا أمر الحزن والفرح معًا، كأنها حرقة الفقد، وفرحة الارتقاء.

⦿ 1988/12/16م

قنبلة المخيم

شطر البيوت المصفوفات بالتعب على يمين الدنيا ويسار لصوص الأرض والقضايا، عين طين مخيم " الشابورة " المجبول بالأسى، من شارع صلاح الدين إلى رمال السطرية المتحركة، التي ابتلعت رافعة جورج الحديدية الكبيرة الصفراء ما بين ملعب برقة ودكان (حسن الفوال).

من شارع (أبو الصابر) كنت أخرج كـ **اللهب** أومض الطلة على الجيش، الواقف فوق سكة الحديد العثمانية، الخائف أن يهلكه "عطايا أبو سمهدانة" بسكينته المجنونة، إذا ما دخل مخيمنا، وأغوص في حَيّ سدود جنوبًا مطمئنًا لأهله، محترصًا من بناية "عواجا" التي كان يعتليها الجيش والكلاب والخون، ويطلقون منها على الأطفال والماجدات الرصاص والمطاط وقنابل الغاز المسيّلة للدموع.

كانت تسيل مِنّا الرغبة والعناد وتهيج الضلوع لا الدموع، وفي "حكارة" كنا نتلقفها ونغطيها بأسطل الزبالة، ثم نحممها بالماء من باب التحقير والسخرية.

الحجارة صارت حكاية استثنائية عندي، صار زمانها شيئًا عاديًا وعاديًا جدًا، تفكرت في شكلٍ إبداعيٍ آخر لساحة المعركة، تكتيك يواكب الحداثة والاختراع في مسلسل "مقايفر" الأجنبي (أبو الشعر الأشقر، وبنطال الجينز)، والذي كان يصنع من ولاعة السجائر قنبلة فتاكة تفجّر شاحنة كبيرة بأكملها، كنّا محظوظين بجارٍ من عائلة "البلبيسي" ومن بلدة "القبيبة"، متحضر ومثقف وقارئ ويعرف الحداثة و"الإتيكيت" بلبسه وقصة شعره ومشيته ورائحة عِطره التي كنّا لا نشمّ غيرها، من عبير في حَيّنا، ونحن المعتادون على "الكلونيا" الـ "555" التي يرشفها لنا الحلاق

"إبراهيم الدربي" على ساحلنا "لتلسوعنا لسوعة" محظوظون بهِ لأنه كان يشتري الماركات العالمية والأشياء الغريبة عنّا أثناء عودته من معهد "بيرزيت" في الضفة الغربية.

وأكثر شيءٍ كنّا نراه غريبًا..!

علبة "النيدو" كبيرة الحجم، الصفراء المكتوب عليها كلمة "نيدو" بالأخضر الداكن وفوقها كتبت كلمة "نستله" بالأحمر الداكن، كما وأذكر أنه كتب بالإنجليزية "NIDO" أيضًا بالأخضر، وفوقهن كلهن كتبت "Nestle" بالخط الأحمر الداكن هو الآخر مع كوب حليب ناصع البياض يتوسط العلبة.

كانت علبة النيدو ذات شكل شهيّ وألوان ملفتة للشهيّة ونحن الذين لا نعرف إن كانت علبة للحليب أم أنها علبة للشوكولاتة.

حتى أننا ذات يوم كنا نتشارط من "بكيت" عصير بالثلج "لبكيت" عصير بالثلج ..

إذا ما كانت علبة للشوكولاتة أو أنها علبة للبسكويت.

لكن صديقنا الحَرّيف كما كنّا نقول له أبو النباهة "لنباهته" كان أكثرنا دقة وانتباهًا ونباهة في الحقيقة، فانتبه إلى كوب الحليب الأبيض المرسوم على صفحة العلبة وقطع مشارطتنا وشكوكنا إلى يقين الحليب.

حليب!!

كيف يضعون الحليب بهذا الاهتمام في علبة جميلة كـ هذه..؟

علبة من صفيح، علبة صفراء، علبة ستغير وجه المواجهة على رأس الشارع من: الحجر إلى القنبلة.

اقترح أحد افراد "الشلة" أو "الرباطية" إذا صح التعبير أن نضع الإسمنت في العُلب ونصنع منها أثقالًا للرفع وكمال الأجسام، وسبحان الله

كبرنا وصار صاحب الاقتراح رافع أثقال.

أما أنا فكان اقتراحي ذات سِمَة انتفاضية :

بها كان علينا أن نجمع أسلاك النحاس التي نلمّها لنبيعها ونحصل على "شيقل" واحد في كل مرة مهما كان وزنها، عند دكان "الشنب" في طرف السوق، وقبلها نضع علب النيدو المحشوات بالرمل والخراء على الإسفلت مقابل منزل (أبو الصابر) ومن ثم: نوصل الأسلاك بعلب النيدو لتبدو قنابل أو "عبوات ناسفة" وهذا سوف يربك جيش الاحتلال ويوقف مركباته، ليتيح لنا رجمها بالحجارة بطريقة أكثر دقة، ومعها نتخلص من تغلب الماكنة العسكرية التي كانت ترجمنا وبيوتنا بالحجارة ك المطر.

وبالفعل وضعنا علب النيدو وربطنا الأسلاك فيهن.

وكان الشباب الكبار يستهترون بنا ويتلامزون ويتمازحون علينا، ونحن نبدو مهتمين ومنهمكين جدًا في التحضير، كأننا فدائية على خط النار، حتى أن أحدنا كان يدندن :

"اشهد يا عالم علينا وع بيروت..

واشهد ع الحرب الشعبية ..

وليِّ ما شاف من الغربال يا بيروت ..

أعمى بعيون أمريكية" ..

انتهينا من التجهيز، واختبأنا في زقاق منزل عائلة "بارود" في حي سدود، إلى أن ظهر الجيش من عند مدرسة "أ" والتي يقال له اليوم: "دوار النجمة"

وبدأ يتقدم بحذر شديد، وقبالة منزل عائلة فلفل، اجتمع الجيش، وأخذ الشباب يرجمونه بالحجارة، بعدها أحضرَ كلابًا بوليسية، وخبراء متفجرات.

ونحن بدأنا نكبّر تكبيرات العيد و"نلاوق" ونخرج ألسنتنا للشباب الكبار نغايظ فيهم، أن انظروا قد نجحت فكرتنا التي حَطّ معها جناح الأسى على المخيم، وفرض عليه منع التجول، وصار الجميع يتباهى بأسمائنا

"عملية فدائية بالخراء"

قاموا بها مجموعة من الصغار ..

وبعث الحاكم العسكري لذوينا وغرمهم خمسمئة شيقلًا لكلّ واحد فينا؛ لأن القانون عند الاحتلال زمانها ما كان يسمح بحبسنا وسجننا.

وبهذا استطعنا نحن الصغار أن نضيف عنصرًا جديدًا في المقاومة علبة "النيدو" بهجة الرُّضّع، أصبحت رهبة الجند، وموت لمن يحرم الطفولة حياتها.

◉ 5 /1989/1م

أسلاك الكهرباء

الأشياء في المخيم جميعها تحمل رمزية مهمة، مهما كانت حقارتها ووضاعتها، الحجارة النائمة في تربة الأزقة، "الشخبطة " التي على الجدران، "المطبات" منتصف كلّ شارع، حاوية القمامة الكبيرة الزرقاء.

كانت الجمادات في المخيم ذات وظيفة ثورية خاصة، أسلاك الكهرباء بالخصوص كانت وظيفتها، أنها عبارة عن لوحة إعلانات للنصر والهزيمة في آنٍ واحد..!!

كان معنى النصر يتجسد عندما نعلّق علم فلسطين عليها مع وثبةٍ خصوصية لتعليق الأعلام، لابد أن يعتلي العلم أعلى سلك في الأسلاك الستة، ليكون فوق كل الأيقونات الاستعراضية لتعليق أدوات الانتفاضة.

ثم تليه الراية السوداء التي تدل على الحِداد، ولا أذكر أنها في يوم سقطت طيلة السبع سنوات.

بعدها قنبلة الغاز المسيّلة للدموع مقعّرة الشكل سمراء مطاطية "طبة" وعلى جانبها القنابل الألمنيوم الأخرى الرمادية المتسخة بالسخام.

أذكر في أيام صِبَا الانتفاضة عام (1987م) أننا عزمنا النية أن نُحسّن من مظهر أسلاك الكهرباء، فربطنا علم فلسطين بمقلاع من حبل وحجر وقذفنا فيه إلى الأسلاك بكل عزم وحرقة، لأن العلم الذي كان قبله قد تلاشت فيه الألوان الأربعة وصار علمًا باهتًا باليًا، وكانت هذه الهيئة تشكل إهانة طفولية لأشبال المخيم.

الأسلاك في المخيم سماء أولى قبل السماء والطارق، والنجم الثاقب، كانت تشكل لوحة تجريدية معلقة في علوّ منخفض، متكاثف الأسلاك الضرورية وشبه الضرورية، والتي لا أحد يعرف ضرورتها.

وضعت يومها لثام من خرقة سوداء ليختبئ تحتها وجهي ولا يعرفني من

ورائها أحد، وعزمت مع أترابي أن أعلّق علمًا جديدًا ناصعًا من السيتان اللامع، حينها رأتني جارتنا مريم، وكانت منزعجة ورافضة لأن نقوم بتعليق علم جديد على السلك قبالة بيتهم؛

لأن جيش الاحتلال يوقظهم في منتصف الليل؛ لينزلوا الأعلام عن الأسلاك، وكان تعليق العلم يوم سعدي، هو ليلة بؤسهم وقلقهم وخوفهم من الجيش.

فراحت تصيح بأعلى صوتها:

هذا نبيل ..

وهنا اعتبرت روح الفدائي داخلي أنا ورفاقي الصغار، إن مريم التي تكبرنا بعدة سنوات اقترفت وشاية جاسوسية، يجب أن نحاسبها عليها بآلية تسمى "القمع"، أي أن نعرضها للضرب والتعزير، وحينها حدث الصدام الأول بيني وبين أخيها رفيقنا

في المجموعة، مجموعة الفدائيين الصغار..

هو بدوره اعترض على أن تصاب مريم بأيّ أذى، وحتى لو كان لفظيًا، لكن باقي المجموعة أصرَّت على أن تتحمل مريم مسؤولية خيانتها للوطن ..!

لكن أيّ وطن..؟

هل كان سلك الكهرباء مع العلم المعلق عليه حينها وطنًا...؟

إلى الآن لم ندرك معنى واحدًا للوطن.

◉ 1990/2/18م

امرأة من قطعتين

- عظم الله أجركم.

- شَكّر الله سعيكم.

- أين أولادها .. هؤلاء..؟

- لا هؤلاء إخوتي وأبناء عمي، نحن أولاد إخوتها.

- أذكر أن لها ولدين: الكبير من نفس عمري، كان يقرأ معي في نفس المدرسة "فؤاد" ..؟

- والله على ما أظن أنه فؤاد.

- لا يا أخي طيلة عمرنا نقول لها: أم صالح، الكبير صالح.

- "أنت سايبنا نحكي عن عمك ومش عارف مين عمك لكبير..؟!" قال أحد الضيوف.

- أنا يا عم عمري أربعون عامًا ولم أحدثهم مكالمة هاتفية واحدة ..!!

كل ما أعرفه كان على لسان عمتي..

- كم عمرها عمتك ..؟

- عمرها ثمانون عامًا أو أكثر.

- يا الله، الفلسطيني يقضي عمره كله في شتات دائم".

عمتي هذه كانت امرأة من **قطعتين**، كانت تحدثنا أن لها قطعة في الأردن، وقطعة في لبنان، ولعشرات السنين وهي تتقصى وتسأل أقارب وضيوف في الأردن عن أحد قطعها هناك.

وبعد أربعين عامًا اكتشفت أن ابنها في سوريا في **درعه**، بعدها كأنها اكتفيت بهذا الاكتشاف العظيم، وأخذت تبحث عن القطعة الثانية، حتى عرفت أنها في لبنان في مخيم نهر البارد.

كانت تقول في حالة هستيرية بحتة:

لا بأس إن لم ألتقِ بهم، لكن يا الله اجعلهم يلتقون ببعضهم.

- يعني لها ولدٌ آخر في مخيمات لبنان..؟

نعم فؤاد في لبنان لكنه ليس ولدًا...

هو قبر من شاهد.

- أله أبناء ..؟
- أخبروها أن عنده ولدين، واحد يعمل في أمريكا اللاتينية، والآخر لا يزال يعيش في مخيم نهر البارد، إنها عمتي "صفية"، صفية التي لطالما كنت أشعر بعدما كبرت وقرأت لغسان كنفاني، أنها صفية غسان التي يظل يتحدث عنها ويقول لها:

"أتعرفين ما هو الوطن يا صفية ..؟

إنه ليس كل ما يحدث"

وأنا بدوري كنت على الدوام لا أناديها إلا يا صفية، كانت تبتسم حينما أقول لها يا صفية بعد أن أخبرتها عن أهمية صفية في الأدب الفلسطيني وكتابات غسان كنفاني..

وترد عَليّ : كل الصفيات حزينات وتعبانات.

كانت تتابع الراديو بجنون وشغف، وتحدث المصيبة الكبرى عندما تقطع الكهرباء ويكون جهازها الراديو قد فرغت بطارياته، تصير تصرخ وتقول:

"اشتروا لي بطاريات قبل أن يأتي أبو عمار وأنا غير دارية".

كانت أكثر مواطنة فلسطينية تنتظر ياسر عرفات أن يعود مع قواته إلى أرض الوطن، وكانت توافقه على عملية السلام التي تدار في أوسلو العاصمة النرويجية، من غير أي تردد أو اعتراض كبقية الفلسطينيين في المخيمات والأرض المحتلة، وتقول:

لابدَّ أن ياسر عرفات يعرف أولادي صالح وفؤاد ولا يمكن أن يستغني عنهم، عرفات لا يستغني عن رجاله.

العجيب أن حديثها هذا أثار حفيظة جيش الاحتلال، وأصبح

ضابط المخابرات التابع لجيش الاحتلال كلما مرَّ ليلًا إلى المخيم يطلب مقابلة أم صالح، ويحاول التأكد إذا كانت تأتيها اتصالات عبر خط تلفون جارنا الطبيب من عائلة العايدي، فزمانها لم يكن يسمح لأحد أن يمتلك هاتفًا إلا أن يكون طبيبًا أو مريض قلب يحتاج الاتصال على سيارة الإسعاف لثقله إلى المستشفى.

كان ضابط المخابرات كلما جاء إلى العمة صفية، يقول لها: ها يا حجة أم صالح اتصل صالح عليكِ من القبر..؟

كانت تبكي بكاء الداخل وترد عليه بكل عزم وحزم وتقول له:

اتصل يا خواجة اتصل وابني بخير.

كان الضابط على يقين بموت صالح، وهي على يقين بحياته. **التباس بين معتقدين..**

بين فكرتين..

فكرة الحياة..

وفكرة الموت.

◉ 1991/3/22م

عودة نازح

لم تخبرني يومًا أنها تحبني!!

كيف لبلد أن تخبر مواطنها أنها تحبه؟!

لا أعرف بينما المخيم يفعل!..

منذ عشرين عامًا وهي تلفظني في أقطار الأرض العربية، ولم تمنحني جواز سفر أو هوية، ولم تسمح لي بالعودة من معبر!.

كيف رجعت إذًا...؟

أدخلتني الأرض من نفق.

أرض الوطن ..؟

أيّ وطن، أنا لا أعرف ما هو الوطن..!!

هل للوطن وجه .. صدر، أم له عينان...؟

أنا يا أخي قضيت نصف عمري ما بين المخيم والمنفى، سأحدثك عن موقف مفجع حدث معي :

في مرة حاولت تزوير جواز سفر فلسطيني، وعندما وصلت إلى معبر

رفح...، بعد رحلة صحراوية كدت أصبح فيها "ابن بطوطة"، من العراق إلى الأردن، ومن ثم إلى اليمن والسودان، ثم ليبيا حتى وصلت مصر **ودخلت المعبر**، وعند وصولي لنافذة الجوازات دار بيني وبين الضابط هذا الحوار.

"فلسطيني...؟

نعم...

إذًا أنت قنبلة ..

قنبلة..!! هل أبدو لك قنبلة...؟.

ألست فلسطينيًا..؟

بلى ..

يظهرك حاسوب الميناء على أنك قنبلة.

أليس أنا في ميناء عربي...؟

بلى ..

لكن ماذا يفعل فلسطينيٌ في الميناء إن لم يكن قنبلة..!؟..

معك حق أنا أعترف أني قنبلة..

وأعتذر أني أتواجد في ميناء عربي..!

كان عَليّ أن لا أرجع إلى غزة..

أنت لا تستطيع الرجوع من حيث أتيت، قبل أن نُبطل هذه القنبلة..

عَلك تنفجر في مكان ما ..

أنفجر؟!!

لكني ذاهب إلى غزة لأرى أمي وإخوتي..!

تقصد أنك ستنفجر في غزة..؟.

أنت تتحدث عن "جَد" أم أنك تمازحني..؟

هل يمكن لضابط مخابرات مصري، أن يمازح فلسطينيًا في ميناء..؟

والله أنا لم أقابل ضابط مخابرات مصري من قبل!!

كل الذين قابلتهم كانوا ضباط مخابرات عربًا ليس مصريين..!

أنت محظوظ.. هذا المساء ستقابل ضباط مخابرات أمريكان وإسرائيليين،

انتظر في الصالة الخارجية حتى نصيح على اسمك.

مرحبا من أين جئت...؟

من السعودية .. وأنت..؟

والله لا أعرف من أين جئت ..؟

ولا أين أذهب ..؟

ولا أين أنا...؟!!

أنا أعرف أين أنت بالتأكيد في معبر رفح؟

ماذا قال لك هذا الفظ...؟

قال لي: انتظر في الصالة حتى نصيح على اسمك.

ويقول: إنه يوجد ضباط مخابرات إسرائيليين وأمريكان، أصحيح هؤلاء الخنازير في المعبر..؟

هذا صحيح، لكني أنصحك بالمغادرة إذا ما سنحت لك الفرصة.

المغادرة ..! يا رجل في التو وصلت إلى أرض الوطن.

يا رجل الوطن!!

جعلتني أضحك، قلَّ ما أجد أحدًا يردد هذه الكلمة..

وطن ..!!!

وطنٌ على أبوابه مصري، وأمريكان وإسرائيليين إما أن يكون مَذْبَحًا أو مَبْغَى.

تنصحني في المغادرة وأنت في إيابك لهذا الوطن....!!

أنا وضعي مختلف تمامًا، يبدو أنك لم تلاحظ أني تاجر آتي إلى غزة لأتفقد ممتلكاتي، ومن ثم أرجع إلى أولادي وزوجتي بالأرباح، لكني أنصحك بالمغادرة؛ لأن الإسرائيليين لن يدعوك تمرّ قبل أن تأخذ نصيبك من السجن، فلحيتك وصرامتك تكفي أدلة على إدانتك.

لماذا يتصورني الجميع إرهابيًا..؟!!

يكفي أن تكون فلسطينيًا، لتكون إرهابيًا.

أليس أنت فلسطيني ..؟

فلسطيني، لكنني أحمل جنسية أجنبية، لهذا يعاملني المصري والآخرون باحترام.

ماذا أفعل الان..؟

لا تقلق لدي **نفق** تستطيع الدخول عبره.

نفق..! ماذا تقصد بنفق..؟

نفق الذي يحفر بالأرض، نفق ألا تعرف الأنفاق..؟

لديك ممتلكات وتاجر وجنسية أجنبية، ولديك نفق أيضا اللهم لا حسد.

لا عليك فالحسد لا يأخذ مأخذه مني، كيف.

ستحمل كل هذه الحقائب..؟

ينتظرني إسعاف تابع لوزارة الصحة يقلني إلى بيتي. إسعاف...!!

نعم إسعاف.

تعمل في وزارة الصحة أيضًا..؟

لا لكن هذا نوع من أنواع الخدمات التي يقدمها لي الفاسدون في غزة.

فاسدون" هههههه " طيلة رحلتي لم أبتسم حتى الان ..!!!

نعم فاسدون، إن وطننا هذا لا ينتج إلا الفاسدين.

وهم الآن في انتظارك ليفسدوا عليك عيشك.

◉ 6/12/ 2008م

نبذة عن المؤلف:

نبيل العريني مفكرٌ وروائيٌّ قاصٍ فلسطيني مرموق.

مؤسسُ صالونَ طوقانَ الأدبيَّ، وملتقى طوقانَ الفكريَّ، والذي يُعدُّ أكبرَ تجمُعٍ أدبيٍّ وفكريٍّ، وثقافيٍّ في فلسطين، وله عدة أعمال أدبية. منها المنشورة وغير المنشورة.

أعماله :

- حكاوي ستي "مجموعة قصصية في التراث الشعبي الفلسطيني السلسلة الأولى"
- قصص من التراث الشعبي الفلسطيني "مجموعة قصصية قصيرة جدًا في أدب الأطفال، وتعتبر السلسلة الثانية من حكاوي ستي"
- تسعون قصة وقصة "قصص قصيرة جدا"
- عدة قصص متنوعة في أدب الأطفال " فردية غير مجموعة"
- سائق في غزة " مجموعة قصصية "
- سلسلة ذاكرة المخيم "مجموعة قصصية في أدب السيرة الذاتية" طباعة وزارة الثقافة الفلسطينية.
- رسائل ما بين غزة ودبي "في أدب الرسائل" منصة أمازون مترجمة للإنجليزية
- الجدُّ الثاني السيد هاشم بن عبد مناف "رواية" [مشاركة في جائزة كتارا للرواية العربية قطر 2020م.]
- دم الزيتون " رواية "
- شهد النهد " رواية "
- العودة من بابل زمن السبي " رواية "

- زوجة مفروشة "رواية "
- حارة القطط ثلاثية " رواية "

[مشاركة في جائزة البوكر في الرواية العربية أبو ظبي 2020م.]

- أخنوخ "رواية "
- تشكرات عثمان " رواية "
- شمس الإيغور "رواية "
- نحن أيضا نعاني "كتاب اجتماعي"
- شات فلسطيني ساخر " في أدب السخرية السياسية "